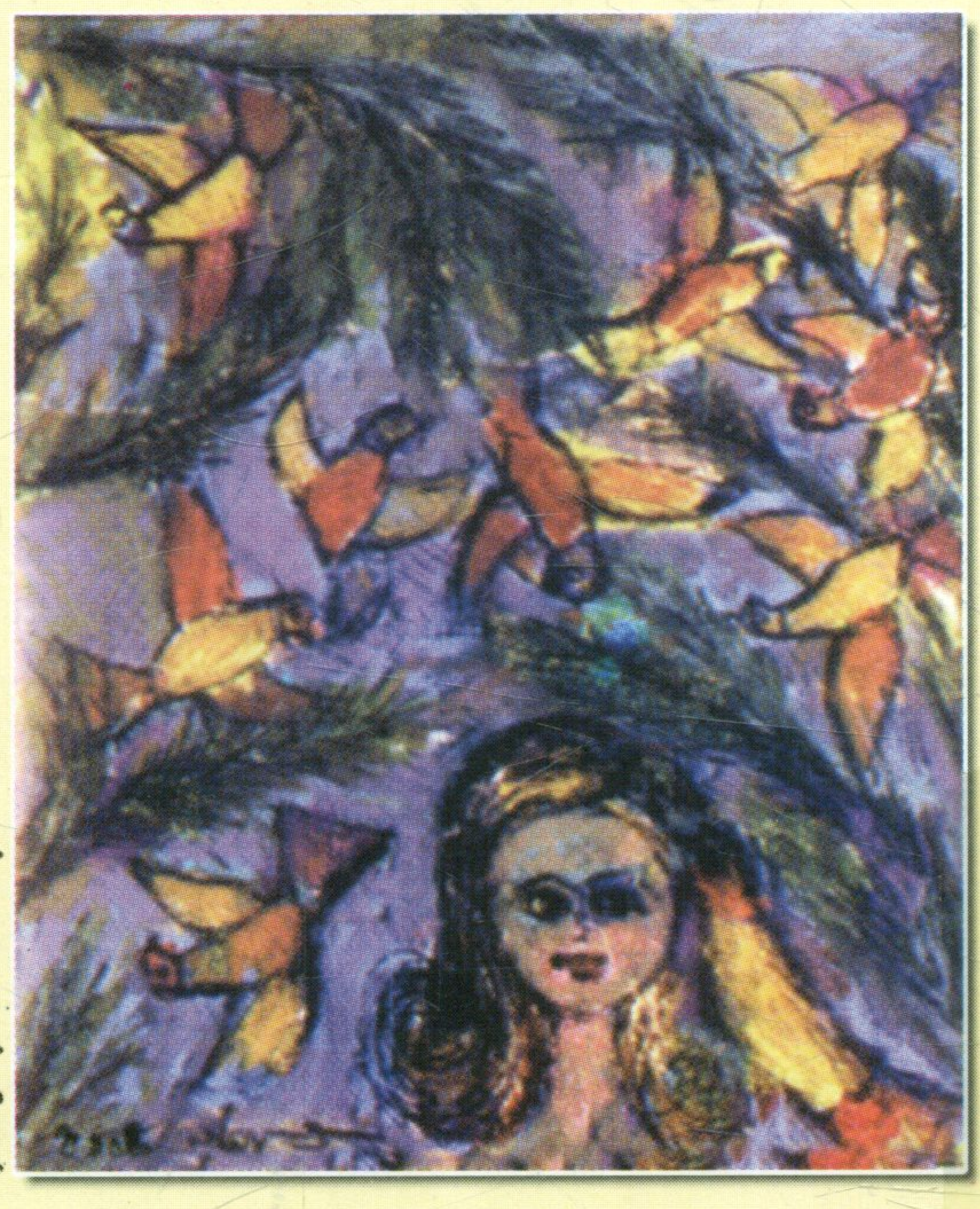
إشراقات جديدة



رواية

فكري داود



لوحة للفنانة: سوسن عامر

طيفٌ صغيرٌ مراوغ



إهـــــــداء ٢٠١٠
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة

عبد الرازق، محمد محمود.

طيف صغير مراوغ: رواية/ دراسة بقلم: محمد محمود عبد الرازق.ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩.

١٦٨ ص ؛ ٢٠ سم.

تدمك ٥ ٨٦٢ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص العربية ـ تاريخ ونقد.

أ ـ العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب ١٠٤٨٩/ ٢٠٠٩

I.S.B.N- 978 - 977 - 420 - 862 - 5

ديوى ٨١٢,٠٩

طيفٌ صَغيرٌ مُراوغ

رواية

تأليف : فكرى داود

دراسة : محمد محمود عبد الرازق



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٩

إشراقات جديدة

تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة
د. ناصر الأنصارى

رئيس التحرير
عبد العال الحمامصى

رئيس التحرير التنفيذى
حزين عمر

مدير التحرير
أحمد توفيق

سكرتير التحرير
عصمت محمد أحمد

الغلاف والإشراف الفنى
صبرى عبد الواحد

الإهداء

إلى:

زوجتى...

وإلى:

عبد الرحمن...

و ســـــارة...

وأميرة.

آمِلاً أنْ يُكْمِلَ أحدُهم ما قد بدأ..

فكرى داود

وقائع ارتحال سعود بن عايض

- ١ -

غيرُ متوقَّعَةٍ كانتْ المفاجأة؛ تلك التى فى انتظارنا ..

ظنُّنا لم يكن ليِحتمل، مجرد ورودها على الخاطر:

أيمكن آن تكون الدِّيرَةُ - القرية - ديرةً بلا سعود؟!

لِتَوِّنا حَطَّ الرحالُ بنا، بعد انقضاء أجازتنا القصيرة، الفاصلة بين عامين دراسيين، من أعوام إعارتنا إلى تلك التضاريس الشاسعة،... فى بطوننا لم تزل باقيةً، آثارُ طعام الأمهات والزوجات، لم يتم القمر بعد، دورةً واحدةً حول الأرض، منذ غادرتْ أقدامُنا تراب الوطن، طعم قبلات الوداع فى شفاهنا لا يزال تحتفظ صدورُنا بدفء الأحضان الصغيرة للأبناء...

عامٌ جديد، يوشك أن يقضى أولَ أيامِه معنا، ليَلِيَ عامًا عنيدًا انقضى - لا يُعرف كيف؟ -، احتل فيه سعود - ابن الديرة - صدرَ صفحة البعاد، ليحل فى نفوسنا بديلاً عن كلِّ مفقود...، كيف لنا إذن - ونحن المتعلقون بقشته -، أن نحتمل وقائع ارتحاله، بعيدا عن

عامنا الجديد؟! أيمكن لحياتنا أن تستعيض عنه، بـ (فالح) ـ ذلك الغامض القادم من أقصى الجنوب ـ؟!

أُسَرٌ عديدة ترحل عن الديرة، أو تحل عليها،، بحثا عن أماكن جديدة للكلأ، أو عن رُقَعٍ جديدة يمكن زراعتها، تاركين أحدهم أو بعضهم يباشر ما تركوه، من بهائم أو مزارع، اختارت أسرة سعود نجران ـ إحدى محافظات الجنوب ـ، لترحل إليها، مُتَخَلِّيةً له عمًّا خلَّفوه وراءهم من زرع وضرع، لا تتقطع بينهم الأخبار، فإذا حل على من خلَّفوه جديد، بعثوا من بينهم من يحل محله.

تطيرُ نظراتُ عيوننا وتحطُّ:

قممٌ جبلية، وِهَاد، مساحات شاسعة صفراء، مَجْرَى متسع لِوَادٍ جافٍّ مُعْظَم الشهور، نخلات متفرقات هزيلات، نباتات قصيرة غليظة الأوراق، يُدْمِي سِلُّها كلَّ مُقترب.

ـ مَن فالح هذا؟! ..

طَرحَتْ ملامحُنا ـ أنا وحسين وصلاح ـ السؤال المدهوش ...

كانت طقوس اللقاء الأول، قد انقضَتْ لِتَوِّها، وحَلَّتْ محلها عباراتُ سعود المفاجئة:

فالح ابن العم.

ساكن الديرة الجديد.

كأنه أنا بالتمام.

ـ ماذا؟!

ـ نعم ... داره هذه ـ ووجَّه إشارتَه نحو أحد البيوت

وَاصَلَ بتردد:

وظيفة...، جاءتنى بالعاصمة.

لم تتحمل أرجلنا ـ المُتْعَبَة ـ الاستمرار فى الانتصاب، مَنَحْنَا لمؤخراتنا الجلوس دون اتفاق.

انتقلت عيوننا بين الرجلين.

لم تستطع آذاننا التقاط كلمات فالح، التى ربما كانت مُرَحِّبة، أو موضحة لشىء مبهم، أو...

أيقظنا من غفوة اللحظة، نداءُ سعود ـ بلهجته البدوية على غير عادته معنا ـ، على خميس ـ العامل ـ:

(وين الشَّاهِى ـ الشاى ـ) يا ولد؟

يتعمد لسانُه ـ منذ قَدومنا ـ، الاجتهادَ فى إتقان لهجتنا المصرية الدارجة، فيما بقَتْ عقبات كثيرة، فى طريق استخدامنا لمفردات البداوة.

على بُعد خطوات من مأوانا، تقع دار فالح المُزْمَعة، مُلتَحِفَةٌ بالهِجْران كعشرات غيرها؛ يفضل أصحابها عليها حياة البَر فى الخيام، فيبدو المكان وكأنه بلا سكان، ربما وَرَدَ اسمُه ـ من قبل ـ على لسان ابن عمه، لكن عقولنا لم تكن متأهبة ـ فى الحقيقةً ـ لاستقبال أى وضع جديد.

لسعود مزرعتان؛ إحداهما على بعد أميال، والأخرى وسط الديرة، هبطت عندها إشارته، قال سائلا:

أتعرفون لمن صارت تلك المزرعة؟

ودون انتظار لِرَدٍّ أضاف:

صارتْ لفالِح، والحلال هذا ـ الأغنام المجتمعة بالقرب منا ـ صار حلاله.

النهار يحاول جاهدًا ألاَّ يرحل، فيما يتعَجَّل قرصُ الشَّمس، الاختفاء عن العيون، أدْرَكَتْ نفوسَنا غيمةُ عريضة، يساورنا الشك فى انقشاعها عن قريب.

عاودَ سعود القول:

فالح بئر مالها قرار، سنوات قليلة تلك التى فصلت بيننا، كم تمنى ألا يبرح ديرتنا هذه، إصرار والده - قبل وفاته - كان حاسمًا؛ صاح به فى لهجة آمرة:

مَن يرعى حلالنا وزرعنا، فى الجنوب يا ولد؟

...

قاطَعَتُه سائلا:

وأنت يا سعود؟

نَدَّتْ عن فالح التِفَاتةٌ مفاجئة.

دَاخَلَنى شعورٌ بالحرج.

وَاصَلْتُ مشيرًا نحو الأفق البعيد:

أَعْنِى؛ وأنت متى الـ ... ؟

أجاب فى وَهَن:

السفر باكر بعد الغداء ـ إن شاء الله ـ.

أعادت عيونُنا تأمّلها لفالح، فى نفوسنا ثارتْ الخواطر:

ها هى البلايا لا تأتى فُرَادَى!

وتَوَلَّدَ بداخلى جَدَلٌ لِمَنْطِقٍ غامض:

أيُعَدُّ رحيلُه المباشر، عقب قدومنا أفضل؟

يجوز...، فحرَارَةُ فراقِ الأهل، لم تَخْفُتْ جذوتُها بعد، وحرارةٌ بحرارة: طَرْقُ الحديد وهو ساخن أرْحم؛ فالحديد عائِدٌ إلى برودته لا محالة، سواء تمَّتْ عملية الطرق سريعًا، أو لم تتم، واسْتَرْجَعَتْ أُذناى تعبيرات جدتى القديمة: عند حُلول ما ليس على البال أو الخاطر:

(هِيبية) بَلِيّة وَسَط بلايا.

(هِيبية) تأخذ حَدّها وتروح.

تُرَى هل ينجح منطق كهذا ـ إن كان منطقًا أصلا ـ فى التّسْرِيَةِ عن قلوب وجلة؟

رَانَ على مجلسنا صمتٌ غريب، تمتد أيدينا إلى كئوس الشاى، تدور بها يدُ خميس، تفرغ ثم تمتلىء ثم...؛ لا تدرى لها الحلوق طعمًا.

هَزهزتْ يد سعود الكأس الفارغة ـ كعادتهم ـ هَزَّة الاكتفاء، أفْرَجَ حلقُه عن كلمةِ (بَسّ) مسلوخة؛ بَدَتْ كقطرة ماء فى قاع بئر سحيقة، انتقلت عيناه شديدتا السواد بيننا، قال:

كيف حال الإخوان؟

قلنا:

حمداً لله ،... كيف حالك أنت؟

قال:

طيب ... ، كيف الأهل بمصر؟

سأل حسين:

مصر القاهرة أم...؟

قاطعه:

مصر أم الدنيا يا رجل، كما (تجولون).

صنع فَمُ فالح ابتسامة ضيقة، بدأتْ حركةُ الكلمات تتردد بين شفتيه، انتقلت أسئلتُه بيننا، كانتقال طائرٍ غريب، يبحث عن قُوتِه فى أرضٍ مجهولة، امتدتْ بيننا الساعاتُ، أوشكتْ عُقدُ ألسنتنا أن تَنْفَك، وللعيش والملح جَرَتْ أولُ مشاركة، يداعبنا الأملُ فى انفتاح أبواب القلوب،... تفاجَأنا بوصول علمه، إلى تفاصيل تخصنا عديدة، أرجعنا ذلك، إلى ولع سعود بالحكى، كما بدت وقائع الديزة ـ التى ربما يتحتم تفصيلها ـ، صفحةً ممتدةً أمام ناظرِيه:

مغامراتنا مع القرود التى لا تنتهى.

صلة البنت صالحةِ بأحدهم، وما يكتنفها من ارتياب.

سيرة عمتها صبيحة، المُشَاع ـ قديما ـ، خبرُ فرارِهَا إلى عالمهم.

محاولات سعود المضنية، للعثور على شريكة تقاسمه الحياة.

كما فاجأنا ـ أيضًا ـ، بشَكِّه فى صِحَّةِ الكثير، من تلك الحكايات؛ خصوصًا المتعلقة بالبنت صالحة وابن القرود، بل ويرى فيها ـ أى صالحة ـ الشريكة الأنسب لحياة سعود ـ أبدى ذلك تلميحًا دون تصريح ..

بدأتْ نفوسُنا مراسمَ الاستعداد، لِتَتقَمَّص أدوارًا، ودَّعَتْها آخر العام المنتهى ـ قبل الأجازة ـ شَرَعَتْ الشفاهُ، فى تجريب ابتسامات بلا مغزى، فيما بقت قلوبُنا، معلقة بالأهداب البعيدة للأحباب.

من طرف السماء، طل على استحياء هلالٌ صغير، ، ولاحَتْ فى ـ مَرْمَى البصر ـ أشباحٌ قردية متنافرة، هلَّتْ معها رياح الريبة، اندسَّتْ يدُ فالح ـ بحكم العادة ـ، تحت صدر جلبابه، بدَتْ لَمْعَةٌ واهنةٌ لمسدسه الصغير، ارتفعتْ كفُّ سعود مُطَمْئنة، فعاد السلاح إلى مَكْمَنه.

انفتح فمُ حسين عن آخره، قال:

النوم بالداخل الليلة يا إخوان ـ مشيرا إلى عدم النوم تحت السماء، كما عودنا سعود، منذ العام الفائت ـ

قال فالح مُؤَمِّنًا:

نعم، الأجساد فى حَضْرَةِ السفر، تحتاج إلى مزيدٍ من الدفء.

عاونَ بعضُنا البعضَ فى الانتصاب.

قال سعود:

(الغدا) باكر يا شباب (الغدا).

التفت إلى خميس مضيفا:

انْحَرْ أكبر خروف عندنا يا ولد.

قلت:

خَلِّى (غدا) الوداع علينا.

قال فى توسُّلٍ وَدُود:

والله ما فى فَرْق، قولوا:

تَم - لفظ الموافقة -.

قلنا:

تَم...

تابعتْ عيونُنا خَطْوَهُما المبتعد، ونحن نحمل أجسادَنا المهدودة، إلى داخل المأوى، تطاردنا مشاعرُ التوجُّسِ، من رياح الغد المجهولة.

- ٢ -

أكثر مما يحتمل التَّوَقُّعُ جاءت المستجدات، لو خطط لها أكثرُ المخططين حنْكَةً، ما تحققتْ على هذا النحو...

يجنح بنا السؤال:

لماذا تحب الدنيا ـ غالبًا ـ أن تلعب معنا لعبة (شَدّ الحبل) هذه؟

تعطى بيد، وفى نفس الوقت وبنفس القوة، يمكن أن تأخذ...

وإذا كان لِمثل تلك الخواطر، كبيرُ الأثر فى نفوسنا عند الفراق، فهل من قيمة تُذْكَر لها، عند اللقاء؟

خَلْطٌ كبيرٌ يجْتاحُ عقولنا، موازيًا تمامًا لهذه الحِقْبَة، من تاريخنا الحياتى.

أسبوعان فقط مَرًّا، على ارتحال سعود إلى العاصمة، مقترنا بقدوم فالح ابن عمه، فى محاولة لزرعه بيننا...

كعنزة كسيحة مرت الأيام، فشلتْ رياحنا فى ملء شراع ابن العم، تجافيه ـ حتى الآن ـ أماراتُ الارتياح، بِمُقامِه الجديد، تقتصر

حواراته معنا، على صولاته القديمة مع حلاله ـ أغنامه ـ هناك؛ تحت ظلال نخيل الجنوب، ملتحفًا بالنسائم المحملة، برائحة البرتقال النَّجَرَانِيّ.

...

طقوس عديدة وأحوال، يمارسها حسين ـ المتقلب ـ معنا، تأتى ـ غالبا ـ دون مبرر منطقى؛ يحاول إقناعنا ـ بعد ذهاب سعود الأخير ـ بفراسته فى التوقُّع؛ مؤكدا على حتمية عودته السريعة،...

نُعرض عن التعليق، متمنين ـ على أيَّة حال ـ أن يحالف تَوَقُّعه الصواب هذه المرة، وتأتى الرياح بما تشتهى السفن.

تلهث (مُنَظِّمَات) مشاعرنا طوال العام، توشك أن تفتقد كل حساسيتها، كأنها (ترمُوسْتات) مُنْهَكَة، لِمُبَرِّدَات قديمة، مُؤشِّراتُها فى صعود وهبوط مُسْتمرَّيْن، وِفْقًا لحالاتنا المزاجية:

فإذا اقترب موعد العودة إلى الوطن، تعلقنا بأحبال الترقُّب الآمِل، ومع تَحَقُّق العودة بالفعل، تسيطر على قلوبنا البهجة، وسرعان ما يغزوها الانهزامُ، إِذْ يحين أَوَانُ الرجوع ...

تقترن أيام البعاد الأولى بالسَّأم،لا تكون لنا سلوى ـ آنئذ ـ سوى صدر سعود المتسع، ذلك الذى جَثَمَتْ فوق قلوبنا ـ برحيله ـ حقيقةُ افْتِقاده:

إلى أىِّ مَدَى، يمكن أن تحتفظ منظِّمات مشاعرنا، بحدِّها الأدنى من الصلاحية؟

أىُّ شىء بقى، يمكن أن تُخفيه الديرة، لتفاجئنا به؟

تعيد العيون قراءة المكان: ـ

جحافل من بعوض مختلف الأحجام.

جرادات سوداء نحيلة، كالوباء، تحجب كل مصدر للضوء، يختفى من تحتها أىُّ نبْتٍ أخضر.

بَرْقَشَةُ جلودِ الثعابين، بملمسها المثير للقشعريرة.

ذيول العقارب المشرعة تأهُّبًا للَّدْغ.

وفى أحوال القِرَدَة تحار العقول...، لا يفوتنا التسليمُ، بحق آلاف الحشرات والدواب فى الحياة.

فاجأنا صلاح، بما أسْمَاه حسين: فلسفةً فى غير أوانها: قال مستفسرًا:

أليست لكل كائن بيئته؟ أم أن لدى أى كائن من الأسباب، ما يُمَكِّنُهُ من التأقلم، مع أى موطن جديد؟

دارت عيناه، وَاصَلَ ـ دون انتظارٍ لإجابة: ـ

كيف يمكن لديرةٍ كتلك، أن تستوعب كل هذا الكَمّ، من الكائنات الحية؟

...

يجمعنا الفضول بحَكَايا البدويين: ـ

تندُّرهم بِحُبِّ العَقْرَب، للسيّر فى رِكاب الثعبان؛ لا يعلنون لذلك أسبابًا واضحة.

صَوَلاتُهم فى صيد الضِّبَّان[1] البرية؛ بصب الماء فى جحورها، أو بتسليط دخان عوادم سياراتهم عليها، عَبْرَ الخراطيم؛ فيخرج الضب متخبطًا، حيث يملؤهم الاشتهاء إلى لحمه اللذيذ...

تأخذنا غفوة تأملية لبعض الوقت:

أيمكن لأيهم أن يذكر أول مكتشف، لهذه الطرق الغريبة للصيد؟

أم أنهم فقط يثبتون - دون عمد - أن الحاجَة لا زالت أم الاختراع؟

تصحب غفوتنا الأحلام، محملة بذكريات أيامنا الصغيرة، فى قلوب حاراتنا البعيدة، لا تغيب عنَّا وجوه الآباء والأمهات والرفاق البشوشة، لا تخلو الصورة أبدًا، من الأبناء والحليلات، تدفع أيدينا قاطراتِ الليل المُسَوَدَّة، جادِّين فى القضاء على يوم يمر، يبعدنا عن البعاد خطوة، ليدنو بنا من شواطئ اللُّقيا.

قبل يومين ودون ضجة، تمتْ عودةُ فالح - المتوَقَّعة - إلى نجران بجنوبه الأثير، اتفاقٍ ما جديدٍ تم - فى ظننا - بين ابنَىّ العم ...

.. ومن قلب الليل جاءت ندْهَته:

اصْحَ يا ولد!

(1) الضِّبَّان: جمع ضَب: حيوان برى يشبه التمساح الصغير، يؤكل لحمه.

لا يمكن لآذاننا، أن تتكر صاحب الصوت.

ملامحه الودودة كائنة.

طلعاتنا البرية العديدة معه، غير منكور نجاحها دَومًا، فى مَدِّ حِبال التَّحَمُّل.

أسبوعان مَرًّا ...

كجنود ـ كنا ـ فقدوا خارطة المعركة.

تكررت النَّدْهَةُ فى حسم، مصاحبةٌ هى، لبشائر الفجر النَّدِيَّة، إنه هو...

سعووود..!

انطلقت ـ تلقائيًا ـ صيحتنا، قَضَّتْ منامَ النائمين.

كالسمك هو وديرتُه الماء ـ هكذا يقول ـ ومن الفشل ـ فشل ارتحاله ـ انبثق الأمل ـ أملنا ـ فى إمكانيَّة القضاء معه، على صَلَفِ الدقائق والساعات و...

داخل رأسى تعود الأفكار لتدور، أقول:

ها نحن ـ يا سعود ـ أمام عينيك؛ أسماك بعيدة عن مائها، على أطراف الحياة تعيش، تحاول التزحزح، عن الخط الوهمىّ الفاصل، بين الموت والحياة.

لامست كفى كتفه، قلت:

(غدا القدوم علينا يا بطل).

أضاف صلاح:

(الغدا يعنى الغدا).

رمَتْ عيناى نظرة تصميم، نحو عينيه، قلت : ـ

قل: تَم.

لامسَتْ أناملُه، خطوطَ العرض فوق جبهته، قال فى وداعة:

تَم .

غزانا ارتياحٌ آنىّ، يحدونا الترقب، فى انتظار صبح جديد،غير آمنين مَكْرَ الديرة، التى تُوَلِّدُ الرحيلَ من القدوم، والقدوم من الرحيل ـ دون اكتراث ـ، تجاهد كلٌّ قوانا، للحفاظ على منظمات مشاعرنا سليمة، حتى يتمكَّن الفرَحُ، من التسلل إلى نفوسنا، إذا ما حان أوَانُ العودة.

(من وحى قصة قديمة)[1]

الدنيا من فوق برميل مقلوب

- ١ -

جبلٌ ممتدٌ.

له التفافةُ حِدْوَة حصان.

مُتَبَاهٍ هو برءوسه المتعددة متقاربة الارتفاع.

فوق رءوسه ومن حولها، تنتشر أسرابٌ قردية، مختلفةٌ السلالات والأعمار، تمتد إلى سائر أنحاء الديرة، تلك الواقعة بين أحضان الجبل ..أنواع عديدة من الزواحف، ومن نبات الصبار، بيوت قليلة واطئة مهجورة، بفعل المرتحلين.

لهيب الشمس يلفح كل شىء، منذ اللحظات الأولى للشروق،وحتى الغروب.

وسط الديرة يقّبع السكن، جزءٌ هو من بيت كبير، وبجزء آخر - يفصله جدار - تقْطُن البنتُ صالحة وأمها المكفوفة، وراء كلأ الأرض

(١) من وحى قصة للكاتب نفسه بعنوان: صالحة وابن القرودْ؛ تضمنتها مجموعة: (صغير فى شبك الغنم) - الهيئة العامة لقصور الثقافة - ٢٠٠١م.

تخرج بغنمات قليلة، تتدفع فى إثْرها ـ دوما ـ أقدام قرد فتىٍّ، يغزو نفوسَنا الارتياحُ؛ نقولِ فى براءة:

لن تصبح وحيدة فى الخلاء!

ثلاثة مدرسين معارين نحن، يسكن سعود بن عايض ـ حامل أسرار الديرة ـ بأقرب بيت لنا، به يكتمل مربع الرجال.

لعود صالحة امتداد جذوع النخيل، ولتضاريس جسدها صراحة المكان، يقع خَطْوُها فينا وَقْعَ خفقاتِ قلوبنا، عند هياج الذكريات.

تتساءل كلمات حسين ـ القاهرىّ ـ الهامسة:

لماذا لا يتخذها سعود له زوجًا؟

تواجهه لهجةُ صلاح الصعيدية:

وأنت مالك يا (بُوى)؟

يملؤنا الفضول، لذلك الخليط العجيب من الحياة، حياةٌ يحتل الإنسانُ فيها، المرتبة الأخيرة، من حيث العدد، وربما من حيث الأهمية!

مع اقتراب الغروب تحين عودتها، مع غنماتها الشّْبْعَى، نلمح قفزات القرد الفَتِىّ، مُنْتَشيةً حول الغنمات،...

تحتل أقدامُه الجدار الفاصل بين سكنَيْنَا، تدور عِدَّةَ دورات متوترة، تهبط به ـ أحيانًا ـ إلى بطن دارها،...

تبدو فى التَّوِّ، أهميةُ ذلك البرميل المقلوب، الملاصق للجدار، تصعده قدماى سريعًا، يقترب عقلى كثيرًا، من اكتشاف سرٍّ كبير،

يحمل - فى ظنى - الإجابة، على سؤال حسين، حول عدم اتخاذ سعود لها زوجا.

لا يُثْنِينى عن تلك العادة (البرميلية)، لَومُ الزميلين المتكرر،... فقط اكتفتْ عيناى المتلصصتان - بعد ذلك - بإرْسال خطين من دهشة، نحو محاولة كلٍّ منهما المستميتة، لمنع الآخَر من صعود البرميلَ أوَّلاً!

عدد مرات صعود البرميل عسيرة الحصر، تفاصيل جَسَدِيَّة عديدة للبنت، أَلِفتَهَا عيناى،...

تقطع قفزاتُ القرد ـ كل مرة ـ الجدار، يَتَمَلَّك جسدَه ارتجافُ الحريصين، إلى بطن دارها يهبط، كحجر سَقَطَ من عَلٍ...

يحتل بدنى طائرًا ـ آنئذ ـ ظهرَ البرميل، يَنْدَبُّ بصرى فيما هو كائن، يسكن عينىّ المتسعتين غليانٌ شديد، يمتد سريعًا إلى سائر الجسد.

ها هو الظهر الأُنْثَوِىّ، مُسلِمًا نَفْسَهُ للأرض ـ كَكُلِّ مرَّة ـ، وبين الساقين ـ مُنْتَشِيًا ـ، ينام جُرْمٌ حيوانىّ فَتِىّ!

طيف صغير مراوغ

آخر لقيمات الغذاء فى طريقها إلى المعدة...

قدماى تقودانى نحو سرير القيلولة...، الرأسُ يرفض الانصياع لمحاولات النوم المتكررة.

شهرٌ يتيم انقضى، منذ القدوم الأخير، تبقى بقية عامنا الدراسى هذا، وفى الغيب يبقى عامان آخران، يتحتم قضاؤهما، لمن يرغب فى اكتمال إعارته.

طيف البنت الصغيرة ـ البعيدة ـ يلوح، حائما من حولى، يطير ويحط عند كل شىء، القلب تملؤه الحُرقة، تُرى كم تكون المسافة الفاصلة بيننا؟

فارق ظهرى الفراش، طاوعتْ رغبتى فى الانفلات، إلى الخلاء المتسع خارج البناية، سكونٌ تام يُخيم، سرسوبُ هواء ضعيف يمر، حفيفُ سَعَفُ النخيل يُناوش حَرَّ الشمس، أزيزُ ذباب، طنينٌ لنحلات جبلية قليلة تدور حول الرأس.

مائة كيلو فى البَرِّ بين الديرة، وأقرب هاتف بالمدينة، لا نزول إلا آخر الأسبوع، الذى فى أول أيامه لا يزال.

الطيف الصغير جَزِعًا يلوح، تطير أبراج العقل، تصطدم النفسُ بقلة الحيلة.

...

ارتفعت عيناى عن الأرض، وقعتْ قريبا، عند بُقْعَة أرض عجيبة، تزحمها أشجار السِّدْر المثمرة، فى حجم فدان هى، يدهشنى - دائما - الإنْبَاتُ دون ماءٍ جارٍ، قال أحد الزملاء - ذات مرة - مفسراً:

الجذور الطويلة، تذهب بنفسها إلى الماء، وكذلك صاحب الحاجة؛ يبحث عنها، لا تبحث هى عنه، أضاف:

انظر إلينا، ماذا جاء بنا إلى تلك البقاع؟

أغصان السِّدر ملعب القرود المحبَّب، تدهس أسنانُها كلَّ ما تقع عليه أيديهم من ثمار، يتخذها الصغار أراجيح هوائية، تتناثرُ - بفعل الأرجحة - الحباتُ الأكثر نضجا، تتلقَّفها أيدى مُفْتَرِشى الأرض، تُلهى أصابعهم عن العبث بشعورهم؛ لتَقْتَنص قملاته البذيئة، وتصعد بها إلى أفواههم بغرض الفتك بها، فيعترى النفس الآدمية التقزز، ويوشك القىء، أن يندفع خارج الجوف.

تحتفظ حواسِّى بقدرٍ متوازن، من علاقتها مع القرود، مرات عديدة، تصنعتُ اللعب معَ المستأنس منهم، ومرات أخرى دفعتُ بالأحجار، نحو معتادى الإيذاء، كثيرا ما دقت أيديهم نافذتى ليلا، قاطعةً وصال النوم.

مع كل هـزة قـردية للأغـصـان تـهيج الأفكـار...، داخل رأسى يـركب طيفُ البنتِ الأرجوحةَ، يتردد صدى كلماتى بداخلى:

ما وطئت قدماى تلك الديرة، إلا من أجلك أيتها الصغيرة، ماذا تُرَاهُ يحدث، لو تهفو نفسكِ إلى ما لا تطاله يداى؟ -

بَدَا الأمرُ (كفنتازيا)، على الرغم من جِدَّتِه، توقف عقلى عن الاستمرار، فى خواطر كتلك، متنبها لعدم جدواها، حيال ما هو كائن بالفعل، وعلى كيانى - الآن - أن يستعين بما تبقى لديه، من مخزون الصبر،...

نحو رقعة السِّدْرِ تروح العيون.

...

يروغ الطيفُ محاورًا، تحاول أهدابى القبضَ عليه؛ تنجح هذه المرة، تستعيد بصيصا من مساجلاتنا معا:

خطواتُ البنت، وهى تجتهد فى تَعَلُّمِ المشى، تحاول ركبتاى ويداى، أن يفتعلوا معها سباقا ما، تُحْدِثِ ضحكتها (طَرْقَعَة) تَطْرَبُ لها أذناى.

...

يلامس ظهرُ القردة الصغيرة حشيشَ الأرض، الأغصان المحملة لها غطاء، تجوسُ أصابع الأم بشعرها الخفيف، تقْدَغُ أسنانُها حبَّات القمل بعنف، تأخذهما معا ما يشبه العُزْلةُ، لا يعطيان آذانهما، لصراع فِتْيَة القرود، على ثمار السِّدْر.

أرفع بصري عن الرقعة قليلا، يقع على أجرامهم المتناثرة، فوق منحدرات الجبل، المتعددة بتعدد رءوسه، حول قدميّ تفترش الأرض جعارين صغيرة سوداء، لها قُدرة عجيبة، على تحمُّل صهد الشمس، تنبَّه رأسى لاشتداد الصهد،...

لاحت فى الأفق بادِرَةُ شِجارٍ، بين جماعاتهم، متعلقةً عيناى بحسناء القرود الوليدة، تطرحها أمها حانيةً فوق الظهر، تتفضان، تلوذان بغصن شجرة وارف، تقطف الأم الحَبَّات، تنزع أسنانُها قشرةَ الثمرة، تدفع بها داخل الفم الصغير، تلوح فى عيونهما نظرات الحب.

...

فوق (موكيت) الصالة ترفعها يداى، تتأبَّطُ ساقاها جنبىَّ خشية السقوط، تخرج كلماتُها متكسرة :

(سى .. سى .. سى).

تُسابق رُكْبَتاى يدىَّ فى الحَبْو، تجوبُ بها الأركان، تملؤنى الغِبْطَةُ؛ أنْ صِرْتَ حمارها الأمين، تُخَلِّصُ أصابعى حبات (السودانى) من قشورها، تجاهد أسنانُها القليلة (لدغدغة) الحبات فلا تفلح.

...

فوق الأغصان، احتالت المناوشات إلى معركة محدودة، وتأهَّبَ مفترشو الأرض، لدخول المعمعة.

ثمرة كبيرة بيد القردة الأم، توشك أن تنزع عنها القشرة،

فاجأتها بانتزاع الثمرة، يد سوداء لقرد سمين، حاولت يد الأم الارتفاع قليلاً، باغتتها اليدُ السوداء، بلطمةٍ على جانب الوجه، انشغل ذراعُ الأم، بالالتفاف مُرتبكا، حول البدن الصغير.

أسْدَلْتُ جَفْنَىَّ فوق حبتىّ عينىّ، لامَسَتْ أصابعى جلد خدى الأيمن، كان آخر ما لامَسَتْه كفٌّ البنت ـ الطيف ـ وهى تُنْتَزَع من بين يدىّ عند آخر وداع.

حاولتْ أسنانُ الأم، أن تنال من مؤخرة القرد السمين، ارتدت يده الغشيمة، فى محاولة عنيفة، لانتزاع الصغيرة الفَزِعَة...

امتدَّ التشابكُ ليشمل كل المساحات، غبار رملىٌّ ناعم غطّى المكان، و...، وفشلتْ كلُّ محاولات عينى الحثيثة، فى التمسك بخيوط الطيف البعيد.

مَرْثِيَةٌ للصَّديق

تتردد أقدام القرود على بيت سعود، تجوس، تجمع بينهم وبينه وقائعُ، يصعب حصرها فى كلمات، يتحقق لهم الابتعاد بسهولة، عند أقل شعور بالخطر.

بين المترددين، جَدَّ ـ ولأول مرَّة ـ أحدُ القرود، حديثى العهد بالسَّطْو، داخل حجرة فى طرف البيت غاب، فيما لاذَ الآخرون ـ الأكثر دُرْبَةً ـ بالفرار.

أنف سعود لا يخطىء رائحتهم، أثار أقدامهم فوق الأرض مطبوعة، يعلم أنفه ـ هذه المرة ـ أن الرائحة ليست لآثارٍ وفقط، تظاهرتْ حواسُّه ـ مع ذلك ـ بالغفلة.

تُجَافِى الطمأنينةُ ـ حتى الآن ـ، قلبَ الحيوان المختفى، صدَمَهُ فشلُ محاولاته المتكررة للفكاك، أطرق رأسَه إلى الأرض فى يأس، أخفَى ذيلَه بين خلفيتيه، عاد بدنُه المهدود للانزواء، فى أحد أركان الحجرة.

عينا سعود مفتوحتان، لا تهزُّ شعرةً منه، هـذه الجَلَبَة القردية بالخارج، يقينُه أكيد، أن الجَلَبَة وحدها، لا تكفى لإنقاذ ابنهم الغشيم.

كسْرةُ خبزٍ طريَّة، بين أصابعه تنام، إلى الحجرة النائية قادته قدماه، تعرَّفتْ حواسُّه ـ بسهولة ـ على موقع المختفى الغرير، انْدَبَّ النظرُ فى النظرِ، إنسانا عينى الحيوان المستديران، يسْكنهما الاضطراب، ألتقتْ الأصابعُ الآدمية، بكسرةَ الخبز بين أماميتيه،ارتفع بصرُه عن الأرض، هَدَّأتْ ابْتِسَامَةُ سعود الهادئة من رَوْعِهِ، اهتزَّ ذيلُه، أصدر صوتُه ثرثرةً واهِنةً.

فارق سعود المكان لبعض الوقت، ثم عادت العيونُ لتلتقى، بإناء الماء امتدت اليدُ الحانية، وشيئًا فشيئًا تاه الخوف فى العيون المتوترة.

لم تهدأ ملاحظة سعود للمكان، أرَاحَه تَوَقُّفُ محاولات الحيوان للفرار، فيما ظلَّ ضجيجُ عشيرته المحتج على حاله.

فى المساء انحط العَشاء.

تمايل ذيله عدة مرات، احتك بدنه بالساقين الآدميين، بَدَتْ فى نظراته أمارات الرضا، جمعهما طعام واحد لأقرب فطور.

بالقرب من الباب ـ المغلق ـ برهنتْ آثارُ الأقدام، على فشل العشيرة، فى اقتحام حجرته.

انشغل ركنُ الحجرة البحرى، بفراش جديد، تَعَانَقَ كفًّا الصديقين، تفقَّدَتْ أقدامُهما ـ معًا ـ أركان البيت، تَعَرَّفَتْ حَوَاسُّ

ظافر ـ الاسم الذي اختاره سعود له ـ على أماكن الطعام، ارتدى قطعا من ملابس البشر، اعتاد على تفقد جنبات عديدة، حتى محتويات ثلاجة الغاز!

تحتل وجوهنا ـ نحن المُعارين ـ الدهشة؛ من ذلك (الصّيم) العجيب للتفاهم بينهما.

تمتلئ قلوب قبيلة القرود غيظًا؛ لم تغب عن أذهانهم ـ على ما يبدو ـ صورة صغير سابق لهم؛ فضَّلَ الموتَ شنقًا ـ بحبل يتدلّى من سقف شبك الغنم ـ، على أسْرِ سعود له، تَوَدُّ أسنانُهم تمزيقَ جسد ظافر، ذلك المارق الأثيم.

تتحَطُّ رأسُ ظافر القرد، فوق وسادته؛ تسرح به الأفكار، تستعيد ذاكرته مشاهدا، تتعلق بموت والديه الضامرين، فى معركة بين فرعين متناحرين، من فروع قبيلة القرود، ثم هُزاله ـ بعدهما ـ بين الأقران؛ يزداد امتنانًا لِبَنِى البشر؛هكذا يحلو لسعود أن يتصور الأمر ـ، يعلق جراب مسدسه بحزامه الجلدى، حول وسط ظافر، تقع عيون الغاضبين عليه، تَجْبُن خطواتُهم ،لا ينسون فعل المسدس فيهم، فى مواجهات قديمة، تتوقف محاولات اقترابهم من المكان، من أين تأتيهم المعرفة، بأن الجراب خالٍ من مسدسه؟

فى النهار، تتعدد محاولات سعود، لتدريب صديقه، على قَنْص حيوانات البَر، فوق السطح المتسع، يمنحان الراحة لجنبيهما، يملآن رئتيهما، بهواء الليل الطرى، تتابع عيون ظافر حلقات دخان الشيشة، المطرودة من صدر سعود، يتسلل الدخان إلى الصدر الحيوانى، يطلقان سعلتين متوازيتين، تقطعان حوارهما الصامت.

يفرج صدر حسين، عن زَفْرَة طويلة، تفشل ملامحه فى إخفاء ضيقه، من انشغال سعود، بهذا الوافد الجديد، فيما راحَ عقلانا ـ أنا وصلاح ـ، يفتشان عمًّا يملأ ما استجدَّ، على حياتنا من فراغ .

فشلت كل محاولات سعود، لاقتناص زوجة لظافر، مثلما فشل هو ـ حتى الآن ـ فى العثور على امرأة لنفسه.

سَرَقَتْهُما ـ ذات مرة ـ ،جلسةُ السطح الليلية، بَثَّ صَمْتُ كلٍّ منهما هَمَّه للآخر، أثْقَلَتْ الخواطرُ رَأْسَيهما، جَرَّتْهما أقدامُهما إلى النوم، أنْسَتْهما الحالُ إغْلاقَ نافذتَيّ حجرتيهما، أيقظَ سعودًا ـ فجرا ـ عواءُ ذئب عجوز، سحب خطواته ـ وَجِلاً ـ إلى فراش الصديق؛ فاجأه اختفاءُ جراب مسدسه، وأخَذَهُ المَغيبُ طويلاً، عندما وقع بصرُه، على آثار أظافرهم، حول حنجرة ظافر المنهوشة.

من ظافر إلى ميمون
أو (الحاوى)

بلسان بدوى أصيل، أعَادَ سعود علينا، تفاصيل متعلقة بحكايته مع ظافر؛ الذى تربى بين جدران بيته، انقطعت متابعتى له عند قوله:

كان يمكنه استخدام المسدس ـ لو عاش ـ ولكن ...

سرح خاطرى بعيدًا؛ العديد من الأعوام والأميال، تفصلنا عن ألعاب القرد ميمون ـ السارح عنده الخاطر:

كانت أقدامنا الصغيرة ـ زمان ـ تداعب الكرَةَ هناك، فى جُرن الجمعية ـ ملعبنا ـ وسط الجرن، تقف منتصبةً، ساريةُ الشيخ (اللاوندى)، حول السَّاريةِ، تتم مراسم مولده السنوى:ذِكْرٌ وأناشيد، هرَجٌ وألعاب، وحكايات و...

على قلب النيل، تقف قريتنا صامدة، فى مواجهة آلاف الحكايات، التى تدور فى شوارعها، وداخل الدور.

يقتحم آذاننا ـ وقت اللعب ـ صياحٌ صبيانىّ رهيب، تلتفت رءوسُنا صوب الصوت، يقع النظرُ على حَلَقَةِ الصِّبْيةِ، نتسلَّح بالصبر، كى

تستمر الأقدامُ فى ركل الكرة، يصيبُ رغبتَنا الانقسامُ؛ بين الاستمرار أوالانضمام إلى المتحلِّقين، تتنامَى الحلقةُ، يعلو الصياح، يزداد التصفيق...

تلتقط ـ أخيرا ـ يدُ الولدِ سعد الكرةَ، تهرع أبداننا ـ دون اتفاق ـ نزيد الحلقة صفًا جديدًا،... (والعب يا ميمون) تصل إلى أسماعنا قبل أن تقع أبصارنا عليه.

فى ناحية من الحلقة، يحتل الحاوى مكانه، يطلق فمُه عباراته، مُرَتَّبة مُنغَّمة:

أنا لا حرامى، ولا غشاش ...

تمسح سبابته جبهته مكملاً:

آكُل أكْلِى من عرقِ جبينى، ... (كدا ولاَّ أيه) يا شْرِيفة؟

(كدا يا با) ـ من الجهة الأخرى للحلقة يأتيه الردّ ..

يبدو أثر الشمس جليا، على وجنتىّ البنت الغريرتين، كما بَدَتْ سنواتها الخمس قليلة، على فهمها لما يدور، لا تكل لها مُلاغاةٌ، لاتفتر لها حركة، من شقوق ثوبها القديم، تظهر مناطقُ متفرقة، من لحم أبيض مترب.

- ...

- (مَلْحَة) فى عين (اللى) ما يصلى على النبى.

- عليه الصلاة والسلام.

- يخرب بيت (اللى) ما يوسَّع (شوية).

- تتسع الحلقة (شويتين).

- طيب والله ما أنا شغّال قبل ما تصلوا على النبى (كمان).

- علية الصلاة والسلام.

- (كمان) زيدوا النبى صلاة.

- ...

تُلامس مؤخرةُ القرد ميمون الأرضَ، منعقدةٌ ذراعاه فوق صدره، يصنع فمه حركات مَن (يقزقز) اللِّب، تدور عيناه فى محجريهما، تتفحصان جدار الحلقة الصبيانية من الداخل.

يطلق فمُ البنت شريفة، سَيلَ كلمات آسِر، تطّرد عيناها بِضعَ دمعات، تنخلع قلوبُنا من أماكنها خلعًا، تدور يدُها المرتجفة بـ (الطاقية) على المتحلقين، تمتد الأيدى بتلقائية إلى الجيوب، لتخرج بالذى فيه النصيب.

- الله يخرب بيت الجبان و(الخاين) وابن الحرام، ...

قولوا آمين.

- تخرج الصيحة صادقة:

آاامين ..

تشير سبَّابته نحو ميمون، تنتفض قوائمه، يخرج الأمرُ

وراء الأمر:

ارقص رقصة (الغازيَّة) يا ميمون.

- تهتز أردافُه، وقدماه ثابتتان فوق الأرض.

- اعجن عجين الفلاحة يا ميمون.

- يعجن.

- نم نومة العازب يا ...

- ...

يرمى الحاوى نظرةً نحو حماره، مربوطٌ لجامُه فى خشبة (التليفون)، فوق ظهره ينام خُرْجٌ، له جرابان،... ينادى:

(واحد جَدَع يمسك دِى) - بيضة..

- تتردد الأقدام، قبل أن يتطوع أحدهم بالدخول.

- يلاحقه الحاوى بالسؤال:

(بيضة دى وَلاَّ كُرَة؟)

- بيضه.

- (منين تطلع البيضة؟)

- من الفرخة.

- (طَيِّب، والله لابد أطلعها لكم، من القرد ميمون)

يملأ أكثرَ الناس الاندهاش، والفضول، يصيح أحدهم ساخرًا:

كلام فارغ طبعا...

تلتقط أذنا الحاوى ـ المُحَنَّك ـ العبارةَ المتوقَّعةَ، فى موقف كهذا ـ مهما تكرر ـ ، يرتفع صوته مُرددا ً:

كلام فارغ ؟!

يضيف مخاطبا الحضور:

يعنى يرضيك هذا الكلام؟

يحدث الهرَج المُنتَظَر؛ تتناثر الردود:

أبدًا...

لا...

والله ما يرضى أحدا،...

يسحب صدرُه نفسًا عميقًا، يقول:

خلاص يا جماعة؛ (واللى) يحب يشوف البيضة، وهى بتطلع من ميمون يتبعنى.

يرتفع صياح الصِّبْيَة:

هيييه... هيييه...

تجمع أيديهما ـ هو والبنت ـ أشياءهما في ثوان، يقفز بدنه فى الهواء قفزة بهلوانية، يضرب ساقًا نحو السماء، وساقًا نحو الأرض،

يمنح الجلوسَ لمؤخِّرَتِه، فوق ظهر الحمار، تَتَّخِذ قَدمُ شريفة من قدم أبيها سلَّمًا، فى بطن عين الخُرْج ترمى بدنها، وببطن العين الأخرى، يتكَوَّم بدن ميمون؛ وإلى حلقة جديدة، بناحية جديدة من القرية، يكون القصد.

تختلط فى رأسى، سيرة الحاوى القديمة، وقرده ميمون، بحكَايانا القردية الآنية، فتثور الشجون، لا يُوقِفُ ثورتها - أبدًا -، أى تَحَسّر سعود الزائد - فى نظرنا -، على قرده - ظافر؛ راميًا قبيلة القرود بالخِسَّة؛ لضلوعها فى نَهْش حنجرته حتى الممات.

ندخل دائرة الشجن بأنفسنا، لا ندرى متى، أو كيف الخروج؟

صنع فم صلاح مصمصة التعجب،وهو يرى دمعتين حائرتين، أسفل عينَىْ سعود، تقترنان - عادة - بذِكْر صديقه الحيوان، حاولْتُ إلْقاء حجرٍ، فى بحره المائج، قلت - من منطقة بين المَزْح والجَد -:

يعنى قرد يزيد[1] يا رجل؟

سأل ساهمًا:

مَن يزيد هذا؟

قلت:

يزيد بن معاوية، وقرده الذى ركب الحمير، وأجاد التسابق بها، و...

---

(١) نهاية الأرب فى كلام العرب - للنويرى - طبعة دار الكتب - ج٩ ص٢٣٦ - ذِكْر ما قيل فى القرد.

وقبل أنْ أكمل؛ فاجأنا حسين قائلاً:

احك لنا حكاية الحاوى وحِّياة (أبوك).

قلت دَهِشًا:

(تاااني)؟!

طقوس خاصة
أو (أطراف لثوب الشجن)

- ١ -
أطفالُ الطّين

ثلاث نخلات، مجتمعات معًا خلف الدار، يقول سعود:

نبتتْ دون تدخلٍ آدَمِي.

اثنتان تجودان بتَمْرات قليلة عليلة، والثالثة أبْخَلُ من حجر الجبل الأمْلَس، لم يصل علمُنا بعد، إلى أسباب إثمار المثمرتين، أوإلى ما مَنّع الثالثة من الإثمار، شغلات كثيرة تقع، لها ما يبرّرها أحيانًا، وفى أحيان أخرى، لا يظهر لها أىّ تبرير!

تبدو على حسين، فى الفترة الأخيرة، أمارات الانفرادية، مُسَلّمٌ نفسَهُ للصمت، يملأ عُلْبَة مَسْلَى فارغة بالماء، تحت النخلات الثلاث يتخذ مجلساً، يصنع بالماء، مع التراب الناعم طينًا، تشكله أنامله أطفالاً متفاوتة الأعمار، والأطوال، يستغرقنا التأمل عجبًا:

من أين لحسين ـ ذلك القاهرى ـ بهذه الصنعة؟!

تعود أنامله إلى الطين؛ تصنع سيارةً كبيرة، تعتليها الأطفال، يطلق فمُه صوتَ آلة دائرة.

خلفه تنتصبُ قاماتُنا تندبُّ عيوننا فى المشهد لا ينتظر انطلاق أسئلتنا يقول:

هذا الكبير - أحد أطفال الطين - حَسَن، ابنى البِكْرِى، وهذه - الوسْطَى - مُنَى، ألا ترون جمال العيون؟، وتلك - الصُّغْرَى - أمانى...

يستمر حوارُه مع نفسه:

طبعًا طبعًا، ليس أقل من سيارة كبيرة،وبِدَل وفساتين،... طبعًا وبيت، بيت كبير...

يتسع مجرى الدموع أسفل عينيه ترتجف قلوبُنا، توشك أن تقفز خارج الصدور، نَجُرُّ أقدامَنا عائدين، تحاول أيدينا المحافظة، على بدنه المسَنَّد بيننا، حتى لا يسقط، تفشل كلماتُنا فى تخفيف حِدَّةِ الوَجَل، لا تنسى كفُّه فى كل مرة، أن تحتضن أطفالَه!

يزداد - يوما بعد يوم -، احتشادُ الرَّفِّ الخشبىِّ، المواجه لسريره بهم: -

بُقعةٌ للأولاد.

وأخرى للبنات.

الكُبرى إلى جانب.

والصُّغرى إلى جانب.

على أنماط مزاجية متعددة، تنقضى أيام حسين، تنتقل به دون إنذار، من النقيض إلى النقيض، فإذا تلبسته الحال، لا يُفَوِّت الفرصةَ، ليضيف مزيدا من الأطفال ,وفى كل مرَّة ينطرح فى وجداننا السؤال:

تُرى متى تتوقف تلك الطقوس؟

- ٢ -

محاولة للاكتمال

تنفرد بى الحجرة، تعود إلى البنت الوحيدة، ليست على هيئة طيف هذه المرة، ولكن فى صورتها (الفوتوغرافية)، بين يدى تتقلب الصورة، لا تملُّ العينُ النظر إلى تفاصيلها، أحدق فى العينين البريئتين، أقول هامسا:

بنتٌ صَنَعَتْ رجلاً!

لحظات الحَمْل الأولى، لم تَبْرَحْ وجدانى، تَنَامَى كيانُ الرجل بداخلى شهرا بعد شهر، ارتدى لقاء الزوجية الغريزى زيًا جديداً، ومع لحظات الميلاد الخالدة، اختلفت ألوان الحياة...

لا تفارق ذهنى، ذكرَى تلك الزيجة السابقة؛ عدمُ الإنجاب كان بطل الفشل الأول رغم الود.

تكشف صاحبةُ الصورة - دون أن تدرى - عن أسرار جديدة للوجود.

يفعل قلمى الأفاعيل:

مذكرات يخط، خطابات، شخبطات مبهمة، و...

لاتكلّ للقلم حركة.

الوقت حمارةٌ عَجْفَاء مكسورة الأقدام، يفجؤنى نداءُ الرّفاق، تخرج بنا أجسامُنا إلى الفراغ الممتد، تعثر خطواتنا بحجارة الطريق، إلى البقالة اليتيمة للديرة نتوجه.

مساحات الرمال الخالية، مع الوِهَاد، والمرتفعات الجبلية، والنباتات الضامرة الصابرة، تصنعُ أسرةً طبيعية مكتملة!

فوق كل مظهر يلوح، ترتفع الصورة سامقة، توشك أن تلامس السماء.

من أطفال الطين، إلى الصور؛ نحن فى واد، وأصحابها فى واد، يأخذنى التنبُّه، إلى البَوْنِ الشاسع، بين الوهم والحقيقة، يهاجمنى شعورٌ مُقْبِض، وتمتلىء عيناى حسرة، بمشهد إحدى الأسر القردية ملمومة الشّمل.

- ٣ -

قردة الدير

من جريد النَّخيل، يصنع صلاح الحوامل الصغيرة، يأتى (بفروخ) الورق، يثبتها فوق الحوامل، تملأ فُرْشَاتُه الأوراق حياةً:

عود جده المحنى، فوق مصطبة دارهم هناك.

وشاح أمه الأسود، وفمها يلهج بالدعاء.

نعش أبيه، وهو يتوسَّط جمع المُشيّعين.

ازدحمت جَنَبَاتُ حجرته بالحوامل، اللوحات تَعِجُّ - الآن - بكل المخلوقات، فهل يتخلى عنه شعورُ الوحدة؟

هَفَّتْ على مزاج حسين، لحظةُ انسجام نادرة، قال لصلاح:

ارسم قردًا.

وجَّهتُ إشارتى، نحو المرتفعات المزروعة بهم، تساءَلْتُ:

وهل نحن بحاجة إلى المزيد؟!

قطعتْ إجابةُ صلاح الحوار، قال:

سأرسم قرد الديرة.

لم يصل لفهمنا مدلولٌ محدد، لتلك التسمية.

تَوسَّطَ بَاحَةَ الدار حاملٌ كَبير، فوقه نامت لوحةٌ ورقية كبيرة، الباحة مسقوفة بالسماء، يغطى أرضها خليط من زَلَط صغير، ورمال حمراء ناعمة، أسفل اللوحة، خَطَّتْ يدُه - بخط كوفى - عبارة: (قرد الديرة).

فوق العبارة انحط القرد المرسوم:

تمتدُ مؤخرته امتداد الصحراء، لونها الأصفر لا تحده الأبصار، عيناه بئران عميقتان، على قلب الوادى الجاف، عَقيرَةٌ ظهره إحدى قمم الجبل متعدد الرءوس، تتوجه أطرافه نحو الجهات الأربع الأصلية، إحدى أذنيه وَهْدَةٌ بين مرتفعين، والأخرى صحنٌ لجدول، جفَّ ماؤه منذ سنين، ذيلُه نخلةٌ نحيلةٌ معقوفةُ الجزع، فمُه نفقٌ ممدود، داخل بطن الجبل، شَعرَه أعشاب البَرّ المتناثرة، تتخلله حشرات الأرض المهجورة، منخاراه كهفان مظلمان.

يصيح صلاح مفاخرًا:

قرد الديرة هو..!

تتشاغل أذهاننا فى تفسيرات عدة لملامح الحيوان ...

تساءل حسين مستفسرا، عن قرص الشمس المتوهج، أعلى الصورة يسارًا، وعن أولئك المعروقين الحُفاة تحت الوهَج، وعن البدر، الذى يحتل أعْلَى الصورة يمينا، تهب من ناحيته نسمةُ حنين،

وبقايا حُبّ قديم ,وآباء وأمهات؛ تلتف أذرعُهم مرتجفة، حول أجساد صغارهم المصابين بالهزال.

كنت على وشك، أن أسأل الرسام - تقريبا -، عن نفس التفاصيل.

وَجَّه صلاح نظرةَ تعجُّبٍ نحو حسين، قال:

ألم تفهم؟!

أجاب:

نعم لم أفهم.

جاء تصريح حسين بعدم الفهم، موازيا لجزء مما يدور فى داخلى، رمَى صلاح عدَّةَ نظرات، نحو الآفاق من حولنا، قال باقتضاب:

إذن أعِدِ التأمُّلَ من جديد...

فى الفجر، أفْزَعَ نومَنا نزَاعٌ قِرْدِىٌّ صاخب، جمعتنا الدهشة وسط باحَة الدار، لمحنا فوق الجدران، ذيولاً قردية هاربةً، وامتدت أيدينا - بآلية - نحو الأرض، لتجمع أشلاء الصورة المتناثرة.

الخوضَ فى سيرة
قِرد أَسْود كَلْبِىُ الوَجْه

السَّاكِى، العَوَّاء، العنكبوتى، العنكبوتى الصوفى، الوكَّارِى، الشمبانزى،...

أَوْقَفَ احتجاجُ حسين - بصعوبة -، استمرارَ سعود، فى تعديده لأنواع القرود.

توشك الشمس، أن تلملم شعاعها الشفقىِّ لترحل، نسمة خفيفة بلا رمال، تهب على مجلسنا، الكأسُ السابعة فى يدى، تمنحُ شفتىَّ رَشْفَةَ الشَّاى الأخيرة.

مشغولةٌ أذنا صلاح، بالإنصات لأخبار (مونت كارلو)، تمسح يدُه غَبَرَةَ ناعمةً، عَلَتْ (الكاسيت) القديم.

من مجلس العصارى هذا، يمكننا رصدَ تحركات آخر النهار القردية، شغلنى - بِجَدّ - تباينِ ملامح ساكنى الديرة من القرود، سألتُ لا إراديا - وليتى ما سألت - عن سر ذلك التباين!

التقط سَمْعُ صلاح كلمة (الوكَّارِى)؛ تخرج من فم سعود، محشورة بين الأخبار المبثوثة عَبْرَ الأثير، أغلقتْ يدُه (الكاسيت)، اهتزت رأسه مُسْتفسرة، عن ذلك الذى سمع، بادر حسين معترضا سعودًا قبل أن يجيب، قال مشيرا:

انظروا...

توجهت عيوننا صوب إشارته، حطَّتْ عند قرد لا تهدأ له حركة، له ذيلٌ بالغ القصر، يعتلى جسمَه الأحمر رأسٌ أسودٌ صغير.

وَاصَلَ حسين، موجهًا حديثَه إلى سعود ـ وليس إلى صلاح صاحب الاستفسار ـ:

أليس هذا هو الوكَّارِى؟! ها هو إبهام يدِه؛ لا يسهل ضمه مع بقية أصابعه،... مائة مرة حكيتَ لنا عن ذلك، ومائة مرة فهمنا، ارحمنا يا رجل!

اكتفتْ شفتا سعود، بإرسال (مَطّة) امتعاض صامتة.

أدخلتْ الأيامُ على حسين، الكثير من المستجدات، تستهويه ـ الآن ـ النِّكَات القديمة، بعد الملال فيها آنفًا،فيما استمر هدوء صلاح ـ المصطنع ـ على حاله، تجرفنا الجلسات ـ غالبا ـ، إلى حديث الحنين؛ تستحضر مخيلاتُنا الزوجات والأهل، تتقلَّبُ بين أيدينا صورُ الأبناء الملونة، تمنحها شفاهنا القبلات، تصطدم الشفاة ببرودة الورق الأملس، يزداد شوقها إلى تقبيل لحمٍ ودم، تُعيد الأيدى الصور فى حنُو داخل الحافظات الجلدية، أو الألبومات الصغيرة.

فى محاولة للإبحار بوجداننا، بعيداً عن أحاديث الحنين، وكذلك للخروج، من مأزق سعود المنصوب لنا، حول أنواع القرود، أطلقتُ للسانى السَّراح، فى سَرْد أحداث رواية (الحُب فى المنفى)[1]، التى أنهيتُ قراءتها بالأمس، مُركِّزًا على إشارة الرواية إلى عبارة تقول:

(هنا أبيض) ـ وأشرتُ إلى جبهتى ـ عند وَلِىٌّ عهد، إحدى دول الخليج.

قال سعود:

يعنى ؟!

قلت مترددا:

يعنى (مفيش)

...

قلت: ـ

تقول الرواية: (هنا أبيض) ـ وأعدتُ الإشارة إلى جبهتى ـ عند...

ظهر الاضطراب على وجهه، قال هامسا:

أرجوك يا أخى، لا تعيد هذا الكلام؛.. والله ما غير (الرَّبع الخالى)، يصير لك قبرا ...

أضاف بنبرة بدت صادقة:

خلينا فى القرود أسلَم.

---

(١) رواية الحب فى المنفى ـ بهاء طاهر ـ دار الهلال ١٩٩٥م ـ ص ١٥٩.

... ولم يترك الفرصة تنفلت من يده، أشار نحو جَمْعٍ قردىّ متسائلا:

تعرفون هذا الأسود الفحل كَلْبِىّ الوجه؟

- هييه ماله؟

- أصل سلالته، من سكان جبل موسى، فى المغرب العربى، و...

قاطعه صلاح بنفاد صبر:

أنت قارىء أم مُدَّعِى؟

أجاب محمر الوجه:

هذا كلام جدى صالح يا رجل، وكلام جدى (صَكّ).

بدَتْ علينا ملامحُ عدمِ الفهم، قال:

يعنى كما تقولون عندكم (دستور).

قلت متصنعًا الجد:

إياك والسياسة يا سعود!

ارتجفت شفتاه للحظة، قال بعفويّة:

أيّة سياسة؟

قلت:

ألم تَجْرِ كلمةُ دستور، على لسانك منذ لحظة؟

أضفتُ مداعبًا:

يا أخى خليك شجاع، والله ألسنتُنا فى مصر تلوك كلَّ شىء.

رمى حسين نظرةَ لا مبالاة، قال:

صحيح، لكنه كلام، مجرد كلام.

ثم ألقى بحجر، نحو بَدَنٍ مقترب، لقردٍ أسود كلبىّ.

انحطَّتْ يدُ سعود فوق كتفى،سَرَى دِفءُ الودِّ إلى بدنى، مال فمُه نحو أذنى، استحلفتنى كلماتُه - من جديد - ألاَّ أعيد ذِكْرى لمسألة (هنا أبيض) هذه.

اهتز راسى مستجيبا، وعيناى تتابعَان الخطواتِ الهاربة، للقرد كلبىّ الوجه، خوفا من حجر حسين، فيما اكتفى لسانى بالصمت.

نوبة استرجاع

يتتابع اختلافُ التعابير على وجه سعود:

دهشةً، سعادةً، ابتسامًا ...

تضربُ كَفُّهُ فوق الأخرى، تخبط إحداها جبهته، تهبط لتمسح أسفل عينيه، مارةً بأرنبة الأنف.

وحكايات صلاح القروية لا تنقطع، تتعاقب على وجوه السامعين الألوان؛ حَكْىُ الحكَّاء - هذه المرة - استفاض، فى وَصْفِ صَولاته القديمة مع رفاقه: -

تنام القرية - يقول - عيونُهم لا تنام، قفزاتُهم الشيطانية، فوق جدران (دواوير) الفلاحين وزرائبهم، لا تنتهى، خلف إناث الحمير ينسكب ماءُ شبابِهم مُهْدَرًا، رُجُولُهم ترتجف، لا يَدْرِى وَعْيُهم - بالضبط -، متى بدأ معهم هذا الفعل، أو متى انتهى؟

انزعجتْ أذنا سعود، وبانزعاج أشد، خرج سؤالُه محملا بالاستنكار:

مع الحمير؟!

وكمن يقرر حقيقة تُثلج صدره، قال:

ها هو الاختلاف يظهر بيننا...

سألت ـ وأنا العارف لقصده ـ:

ماذا تعنى بكلمة بيننا؟

أجاب دون وجل:

بيننا هنا، وبينكم هناك.

إنها مرة، من المرات النادرة، التى يشير فيها حديثه معنا، إلى وجود فوارق بيننا، يفترض فيها، حُكمَ أفضلية طرفٍ على آخر، فى رءوسنا ـ كمصريين ـ دار حوارٌ صامت، مؤكدًا أن الاختلاف قائم بالفعل، لكنه ليس على الهيئة، التى ينثلج لها صدر سعود، خصوصًا فيما يتعلق بالمسألة (الحميرية)، فظهور حميرنا لها من الفائدة نصيب، فيما تُغنيهم ظهورُ الإبل، عن حميرهم النحيلة، التى لها طِباع الوحوش؛ تنْهَب طعامَ البهائم لتفر هائمة، فلا تتوانَى بندقيه هو، عن إزهاق أرْواحها إذْ تقترب.

يعود سؤاله ليتردد:

مع الحمير؟!، والله لو ...

قاطعه حسين ـ لا ندرى أجادٌّ هو أم مازح ـ قال:

صلاح ورفاقه، ركبتهم شياطين الصِّبا زمان يا سعود،...، (بَسّ) وحياة جدودك، ما تنسى تسلم لنا، على قوم لوط وأحفادهم!

وقبل اكتمال الفهم فى عقل السامع، لاحَقَهُ بالقول:

ولا تنس (كمان)، حكاية القرد الفتىّ، مع البنت صالحة، بنت ديرتكم ...

عَلتْ وَجْهَ سعود صُفرةُ الرمال، قال ـ وكأنه أفاق من غفوة ـ:

هه ...، صالحة؟!، ... يمكن كلام، كلام و (بَسّ).

قلت فى نفسى:

لماذا تشكك كلمات سعود ـ ولأول مرة ـ، فى حقيقة تلك الحكاية المتداولة، عن صالحة مع الحيوان؟!

وتَفَاجَأ هو بقول صلاح:

افعل مثلما فعل القرد يا ولد.

ـ نعم؟!

ـ لا نعم ولا غيره...، بنات القرود بعدد رمال البَر، افعل بواحدةٍ منهن، مثلما فعل الـ...، وبالمرة ترد الثأر لبنات حواء، من جنس القرود الملاعين.

اعترى سحنة سعود الانقلاب، ارتجفت شفتاه، يطوف بوجدانه ـ ربما ـ حوارٌ تَعِس، يقول:

الحمير أرحم، من بنات القرود الداعرات، ألا تعلم أيها الأبْلَه ـ يقصد صلاح ـ، أن لى ثأرًا، عند ابْنَةِ قرودٍ لعينة؟!

أسدل جفنيه فى أسى، تواصل الحوار بداخله، قال:

من أين يأتيك العِلّم أيها الأبله، بذلك الأثر الدائم، لتلك المخالب الحيوانية - لابنة القرود اللعينة - فى جزء بشرى، تتداح عنه نصف الحياة!

استولى علينا السهو للحظة، بدا أننا فى حاجة إلى تفاصيل أكثر، لكننا تفاجأنا، بأسْر رقبة صلاح، بين يدىْ سعود، وَقْتَ استرجاعه لتلك اللحظات الحالكة.

سعود
وابنة القرود اللئيمة

من بين ثنايا الألم، احتل عقلَ سعود تساؤل مرعوب:

تُرى، أتكون هذه الأظافر القردية، لأنثى طائشة سببًا لعجزٍ يدوم؟

تحاول فطِنّتُه إعطائه جوابًا قاطعًا، على التساؤل المُلِح؛ فتعجز عن ذلك، تصعد حرارة جسده المتَّقد، إلى أعْلَى رأسه، كحرارة مِرْجَلٍ يغلى ماؤه، يصعد بخاره هائمًا، لا يدرى أين يستقر به المُقام، تذهب بعقله السَّرْحَةُ بعيداً : ـ

الله يجازيه صلاح ـ هذا الصعيدى ـ ؛ لولا حَكْيُه، عن قريتهم البعيدة، ووقوفه المُريب ـ هو ورفاقه الشباب ـ خلف إناث الحمير، بعيدا عن العيون، لولا هذا الحَكْى ـ يقول سعود ـ ما هاجَتْ بى الذكرى المَريرة ...

أرْجَعَتْه ـ الذِّكْرَى ـ سنوات عشر إلى الوراء : ـ

ذات قيلولة مشئومة، كان حَرُّ الظهيرة نارًا لافحة، تحت شجرة سِدْر كان عودُه مَمَدودًا، تحتمى غنماتُه متباعدةً، بأى ظل صغير،

دفءٌ ما لامَسَ ساقيه، العاريتين بفعل الريح الساخنة، بدا ذلك ـ أول الأمر ـ كحلم...

تحَوَّلَ التلامُس الدافيء، إلى احتكاكات خفيفة، أهذا احتكاك لَحْميّ ؟! ـ تساءل ....

تتباعد شيئًا فشيئًا، فكرةُ أن يكون حلمًا، أفرجتْ إحدى عينيه، عن نصف نظرة، بَدَا ـ كخيالٍ ـ ما يشبه مُؤخِّرَةً مَكْسُوَّةً بالحُمْرَة، جاهَدَتْ حواسُّه، فى محاولة لاستيعاب ما يتَوَهَّم...

ولَّدَتْ الاحتكاكاتُ دِفْئًا مُخادعًا، اعْتَرَتْ بدنَه اهتزازاتٌ خفيفةٌ، موازيةٌ لفعل الاحتكاك، امتدتْ يدُه بآليَّة،لامَسَتْ المؤخرةَ الحيوانية، وقعتْ الأناملُ، فى أسْرِ المَلْمَسِ النَّاعم الدافيء، ازدادتْ الحركةُ سرعةً، حاولَ استبدالَ يدَه ـ لاإراديًا ـ بعضوٍ جسديٍّ غير مستقر، وعند لحظة تمام الاكتمال، كثيرًا ما يتم النقصُ، و...، ولم يعد وَعْيُ اللحظة إليه، إلاَّ وعيناه تنظران ـ فى رعب ـ إلى أثَر المَخَالبِ القردية بين ساقيه!

ثلاثُ وقائع للتّيه

- ١ -

المِرآة الكبيرة فوق الجدار تنام، الجدار مواجه للنافذة اليتيمة للحجرة، لكلٍّ منا حجرته، زنزانته هى، تروح عيناى بآلية نحو المرآة، تتفحَّص ملامحى، يمر اليوم بعد اليوم، والأسبوع بعد أخيه، ثمَّة شعور يتنامى بداخلى: -

هذه الملامح ليست لى:

من الجبال اكتسبتّ بروزًا جديدًا، للعظمتين أسفل العينين، وكالوِهاد انسحب لحم الخدين، نحو تجويف الفم...

عن بُعد، التقطت المرآة كرادار - عَبْرَ النافذة - قردا كلبىّ الوجه، يتخذ لقفزاته طريقا نحو السفح، من أمامه تتدحرج كُرَةٌ لحمية، لبدن قرد صغير، فى نوبة تدريبه - فى ظنى - على تحمل المَشَاق، تمارين كثيرة، ومشاهد مشابهة ألِفْنَاها، دأب كبارُ الحيوانات ممارستها، مع صغارهم لذات الغرض، تبدو كرة الصغير مملوءة بالرعب، تتوقف، تتشبث بما تطوله من الجسد الكبير، فى عنف تدفعها الأطراف القوية، يمتلىء الوادى بضحكات كلبى الوجه،

هستيرية مريبة، فيما تصدر الحنجرةُ الصغيرة، استغاثةً كثغاء الغنم.

المشهد ـ الآن ـ عَبْرَ النافذة، فى دائرة رؤيتى تمامًا، يتردد عقلى كثيرًا، فى التسليم بما يقع عليه النظر، يتساءل:

هل تنتاب بعضَهم نوباتٌ مجنونةٌ كالبشر؟!

إنه هو، نفس القرد، الذى تجمعنى به مواقف متوترة عديدة، خصوصا فى النصف الدراسى الأول، ثمة بذرة للحقد بيننا تتنامَى، لابد من العمل، على التخفيف منها بقية العام.

لحظات وانفلت المشهدُ، من شاشة المرآة، زِدْتُ ظهرى بَسْطَةً فوق الفراش، لعبةُ الشَّدِّ والجذب بين الحيوانين لا تغيب، يؤكدها خليط صوتيهما الضاحك الصارخ.

فوق الجدار، وإلى جوار المرآة، لامَسَ بصرى صورة أثيرة، تجمعنى بوالدى، فى أرضية الصورة، تلهو البنت مع أمها، بقردها القماشى ـ اللعبة ـ تَنَبَّه الوجدان، امتدَّ هناك، إلى أرض الميلاد البعيدة، التَقَى بذلك المَشْهد الوداعىّ الأخير:

تدفعنى جميعُ الأيدى المودِّعة، ترجو أن تصعد قدماى السيارةَ؛ لابد أن تصل مطار القاهرة، بعد ساعات قلائل، تتلاعب بى رغبةٌ عارمة، فى عدم السفر؛ هذه آخر لحظات الأجازة؛ بضعة وعشرون يوما مضتْ كدقيقة حالمة، تحت ضغط الأيدى كنت، كطفل ينسلخ عن حضن أمه...، العيون تغشّيها الدموع، خليط يملأ الآذان، من كلمات التحفيز والمواساة والتَّصَبُّر و...

شهور مضت الآن - على المشهد - كالقرون هى، أفرج فمى عن ابتسامة ساخرة، مملوءة بكل المشاعر المتناقضة.

استعادت المرآة مشهدها الحيوانى، مصحويا بصيحةً عاتيةً، أعادتْ لرأسى وعيها الغائب، واكتفى بصرى، بملاحقة القفزات المرتبكة فوق المنحدر.

- ١ -

داخل الفصل تزداد الحيرة؛ تفاوتٌ كبيرٌ لايزال كائنًا؛ مصطلحات الطلاب البدوية، تفقد دلالتها لدينا، من أين تأتينا المعرفة بأن:

مقولة (أَطَيِّر الشَّرَابَ) البدوية تعنى (أَتَبَوَّل)؟

و(أعْمِل زَجّ) تَعنى (أتَبَرَّز)؟

هذا رغم ما يبذله سعود معنا، لفك شفرات العديد من الألغاز.

خلْطٌ كبير بين حَرْفَيّ (الضاد) و(الظاء)؛ فالـ (ضَبّ) تنطق (ظَبّ)، وكذلك بين (الجيم) و(الياء)؛ فالـ (جريوع)[1] يصبح (يريوع)!

يستوى هذا الخلط عند الجميع، لايخفف منه اعتراف الكبار، أن هناك أخطاء تستوجب التصحيح.

---

(١) الجريوع: ـ حيوان يشبه الفأر، نباتى الطعام، يؤكل لحمه، والجمع: جرابيع.

تغوص داخل الاختلاف، يمتلىء البدويون تفكهًا، لطريقة استخدامنا لكلماتهم، ككلمة (وَاجِد - أوايد -) الحالَّة لديهم محل كلمة (كثير)، وكلمة (أشوا) التى تعنى (حَسَن أوتمام).

تدور بنا دوائر الحيرة بين لهجاتنا نحن، وتلك اللهجات البدوية، وبين لغة الكتب الفصيحة، أجتهد فى فتح آفاق للتواصل، مع البدويين الصغار، منهمكةً حواسِّى معهم، محاولا فهم الفروق الجوهرية، بين نوعين من الضَّب:

السُّهيلى - صغير الحجم - والطَّريقى - كبير الحجم -.

يستولى التصميم على الولد (براز عبد الله) دون حماس منى -، كى يفصل الأمر بينهما، يملأه الزَّهْو، وهو يرى ملامحى المندهشة.

أحاول إفهامه معنى كلمة (براز) - اسمه - فى لغة التداول المصرية، يأخذه الادعاء بعدم الفهم، يقول:

بُرازُ القومِ هم أسيادُهم.

ثمة عراك حيوانى، خارج المدرسة يدور، تصل إلينا أصداؤه.

توقف الجدل الدائر لحظات.

حاول الولد وَصْلَ ما انقطع، من حديث (الضّبان).

نجحت محاولاتى - أخيرًا - فى إفشال محاولته، تأهبا لإنهاء درس النحو الذى بدأناه.

...

هبَّتْ على الفصل، سحابةٌ مفاجئةٌ من عتمة، التَوَتْ أعناقُنا نحو مصدر العتمة، لمحتْ أبصارُنا خَلْفِيَّتَيْ قردٍ كَلْبِيٍّ متوتر، وهو يرتد مغادرا فراغ النافذة.

- ٣ -

فى المساء جاءت فتوى سعود:

قرد مجنون بالوراثة!

كانت إحدى ضحكاته، قد ملأت الليل الساكن.

... هكذا كان أبوه: إذا وضع آدميًا فى رأسه، لا يتركه إلاَّ والجنان راكبه - هذه بقية الفتوى -.

عرقٌ مفاجىء احتلَّ جسدى، وصعوبة كبيرة راحت تسيطر على التنفس.

طلقات حجرية مجهولة صفعتْ نافذتى، أعَادَتْ اليقظةُ وَعْىَ النائم، فتحت يداى النافذة، أطلق ساخرا إحدَى ضحكاته المريبة، اندفع بدنى بى خارج الدار، شَقَّ وجهى هواءَ الليل البارد، وتخبطت أقدامى فى حجارة الطريق، تلوح هيئة القرد قريبة من نظرى، ضحكاته إلى أسْمَاعى تصل دون كَلَلٍ، فى أثرها أنْدَفِعُ كالمغيَّب، أوكمن يُلَبِّى نداءَ (النَّدَّاهَة) دون تفكير!

الدماء صارت تكسو القدمين، والصدر يستولى عليه اللُّهاث، المسافة بيننا - فى غالب الظن - لا تضيق، منخفضاتٍ هبطتْ الأرجلُ، ومرتفعاتٍ صعدتْ.

وقتٌ غيرُ معلومٍ انقضى، فَقَدتْ عيناى المغرورقتان أثرَ الحيوان المُرِيب، وبدتْ عودتى - والحال هكذا - رَهْنَ الظروف؛ هل تأتى - عودتى - على يدِ بدوىٍّ سَارِب ليلاً؟

أم فى كَتَفِ راعٍ ساهرٍ مع النجوم؟

كل ما هو مستقر فى اليقين - الآن - أنَّ الآذان لازالتْ قابضة، على صِدَى ضَحِكَاته، القادمة من بُعْدٍ سحيق.

ينامون فى وادٍ
ويصحون فى وادٍ

مُتَلَكِّئَةً تمر الأيامُ ...

شغَلَنَا - لبعض الوقت - دَوَارٌ غريب؛ يعصف بحفنة من القرود، والغنمات.

مَرَّ علينا قولُ خميس الهامس:

خشخاش ...!

الليالى أطول من ليل امرىء القيس، تُردِّد عقولُنا فى صمت قولَه:

(ألا أيُّها اللَّيلُ الطَّويلُ ألا انْجَلِ

بِصُبْحٍ ومَا الإصْبَاحُ منك بِأَمْثَلِ)

تدريسُنا لقصيدة امرىء القيس، يأتى على هوانا، يثير فى نفوسنا رضا الفضفضة، كُلُّنا ذلك الرجل، ذو الليل الطويل والنهار...، وكل قيس يبكى ليلاه، أو يغنيها، ...لا يهم.

لم يعد يدهشنا إتقان سعود للهجتنا، (التلفاز) الذى يعمل ببَتّاريَّة السيَّارةِ، تملؤه المسلسلات المصرية، وأكثر من أشواط (الرَّدْح) فيها لا تجد، وفى الوقت الذى نمتلىء فيه حنينا، يُقدّمُ ـ ما يُعْرَضُ ـ وطنًا آخر، تكاد الحيرة أن تهلكنا، كالقابضين نحن على الجمر، نحاول التشبث بكل ما تنبض له القلوب.

تكشف شفتا سعود الممتلئتين، عن أسنان ناصعة البياض، السِّواكُ لا يفارق أصابعه، يردد لسانه ـ دون إدراك عميق للحديث الشريف ـ:

(... لولا أن أشق على أمتى، لأمرتهم بالسواك، عند كل صلاة)

يستطرد نفس اللسان بلهجته المحلية ـ هذه المرة ـ :

(أيش يا رجال المسلسلات هذى، والألفاظ هذى، والملابس، والمخدرات؟!)

تنتفخ العروق، فى رقبة خميس، ببواطن أمور الديرة عالم هو ـ بحكم الأقدمية ـ يوشك عامه السابع بالديرة أن يفوت، تنطلق كلماته مهشمة كأسنانه:

(لا تفتح خَشْمَك يا سعود، والله حكاوى لِبْسِ الحريم هنا، للعِبيان السُّود على اللحم لا تنتهى، أما عن المخدرات فلا داعٍ للكلام...)

تتوقف محاولات سعود للرد، عند حدود شفتيه، كيف جرؤ عامله على هذا الخطاب؟

يُحَمِّرُ كلٌّ منهما عينَيه للآخر، وللسيرةِ لم تَعُد عودة.

إلى صفحة السفح الممتد للجبل، ترنو عيوننا؛ تقع على تمايل بضعةِ رءوسٍ، لقرودٍ حديثةِ السِّن، تتخبَّطُ جسومُهم بالأرض، تَصدِم رءوسُهم بعضَها البعض، لا تتسع عينا سعود ـ الفاهم ـ دهشةً...، يَنْدَبُّ بوزُ القرد منهم فى الأرض، كسن رجار كبير، ترتفع خلفيتاه إلى أعلى، يدور بدنُه، كمن يريد زرعَ صفحةِ السهل، بدوائر هندسية عديدة، ثم ينطرحُ بدنُه جانبا!

يردد خميس قولَه:

الخشخاش ابن الـ ...

النَّبْتَةُ طبيعيةٌ، تنبتُ خلف الجبل، شجيرات متفرقات هى، ولغنم سعود معها صولات؛ لم تَدُر بذهنه أيَّةُ دلالَة، لتَرَنُّحَاتِ غنماته، يعقب الترنحات القىء أحيانا، وثمَّةُ ازديادٌ مُلْفِتٌ، لعدد مرات الإخراج اللاإرادى، بدا له الأمرُ ـ فى أوله ـ مُلْغِزًا، برأسِ بعضها كانت سكينُه تأخذ، وبِتَرْكِ البعض ـ حيرةً ـ كان يفعل.

المصادفُة وحدها جاءت، وراء تناول الأغنام للنبات، و (للتلفاز) سبع فوائد:

لمسلسلاتنا صار سعود مُولعا، ومن مسلسل صُوِّرَتْ مشاهده الخارجية بمسرح الحرب ـ سابقًا ـ فوق أرض (سيناء) تعرَّفَ على النبات؛ فى رُقَعٍ متناثرةٍ من الأرض كان، ثم بين يدىَّ المتهَم، الذى تم القبض عليه بطريقة ساذجة.

مُمْتدٌ بنا الوقتُ بعد انتهاء الدراسة، كثيراً ما نقتله في مناقشات تافهة.

خلف الجبل، أعاد سعود التعرف على النبات، امتدت يدُه إليه، ألقتْه فوق الجمر، دخان أزرق تصاعدتْ حلقاته، في خياشيمه سكن، له نكهة غريبة، بَدَتْ مُنَفِّرَةً في البداية، قبل أن تصبح مُحَبَّبَة، عادةً ـ الآن ـ صارتْ.

تتسلل زُرْقَةُ الدخان آليا، إلى أدمغة الغنمات المقتربة، يحتلُّ كيانَها سُعالٌ لاإرادي، وتتلاعب بها الترنحاتُ ، و...

و لم تَعُد حواسٌّ سعود تحفل بما يدور.

بعد الانصراف، تحوم أرْجُلُ القرود، نحو دُخَان الجَمْر الملتهب تتوجه، تعمل أنوفُهم عملَها في الشَّمّ، يملأ الدخانُ صدورهم، تهتز الجسُومُ، تدور الرءوسُ، في صفحة السَّفْح المنبسطة يعمل الدَّوار أعماله، نتأمل أحوالهم، تأخذنا الدهشةُ قليلاً...، يأخذهم التوتر، تَتَقَلَّبُ حياتهم بَطْنًا على ظَهْر، إذا حَالَ ظرفٌ ما، بين إلقاء الوريقات الجافة فوق الجمر.

يعود لسانُ خميس ليردد:

خشخاش، خشخاش.

يُخْرِج سعود من (سيالته) كيسا صغيرا، من داخله تبدو الوريقات الجافة، مع بِضْع سيجارات، كأقلامٍ صغيرةٍ بيضاء، يُطلق فمُه القهقهةَ، تردُّ عليها قهقهةُ خميس، تبدو كصدى الصوت، يَقول دَهِشًا:

(وكمانِ) لَفّيت؟!

بالسجائر تدور اليدُ، تبدو السيجارةُ قصيرةً، بين أصابع صلاح السمراء الطويلة، يردد:

(خلّينا نشرب، وزى ما ترسى دق لها)

من بين المجلسين ـ مجلسنا أمام الدار، ومجلس القرود فى صفحة السفح ـ مرَّ قردٌ يَقِظ، رَمَتْ عيناه نظرتين شاردتين نحونا، قبضت كفُّ حسين على حجر، صاح:

اجر يا ابن العفاريت.

استجابت أرجل الحيوان ـ الذى لمحتْ عيونُه المُدرَّبةُ الحجرَ ـ أسرعت به بعيدًا.

لفَحَتْ مجلسَنا نسمةٌ ليليةٌ عليلة، متعلقةٌ عيونُنا بالمشهد القردى المواجِه، السجائر تلفظ أنفاسها الأخيرة، بين شفاهنا القلقة، مِن سعود سَرَتْ إلى جسومنا، منذ العام الفائت، بعضُ طقوسِه الحياتية، كما تسرى لهجتنا على لسانه، لعل أخطر هذه الطقوس؛ تسليم أجسادنا للأرض، أمام الدار عند النوم، فى مواجهة المشهد الحيوانىِّ المتكرر.

... القرود فى النوم لهم أحوال ـ هكذا بدأ سعود الكلام ـ رأسُه لا يزال محتفظا، بالكثير من الوعى.

أضاف:

تتجاور أجسادهم تماما، فوق وجه الأرض، يعتدل القرد المتمدد فى أول صف النائمين، تنفتح عيناه، يطلق صيحةً واحدةً، تنتفض به قدماه، تحملان بدنه نصف النائم، إلى آخر صف النائمين تتوجه، يُسلّم جسدَه لجانب الأرض ثانيةً، يحلُّ الدَّورُ على مَنْ صار أوَّل النائمين، تقُضُّ منامَه صيحةُ سابِقِه بالصف، تفعل أقدامُه ـ دون جهد ـ ما فعلتْ أقدامُ سابقه، ثم الذى يليه، وهكذا تدور الدائرة، يصبح أولُهم آخرَهم، وآخرهم أولَهم، تمتد الأرض من تحتهم، وتتغير أماكن منامهم.

احتلَّ التثاقلُ الأدمغةَ الآدميةَ، وفى محاولة لِتمسُّك حسين بالوعى، توجَّهَتْ كلماتُه إلى البدوى:

ينامون فى أرض، ويصحون فى أرض.

رد البدوى مصححًا:

تقصد: ينامون فى وادٍ، ويصحون فى وادٍ.

... وامتلأت العيون، بآخر ما وقع عليه البصر:

ذلك الخط القردى المتمدد بانتظام، أولُه ناحية الجبل، وآخره ناحية مجلسنا النائم، ومع هبوب أولَى نسائمِ اليقظة الصَّباحيَّة، دفعتْ حنجرةُ صلاح، بصيحةٍ مرعوبة، واعترى أجسادَنا التخبُّطَ، بأجسادٍ قردية مُتمدِّدَةٍ بيننا.

مواجهةٌ
على قلبِ نَبْعٍ قديم

قبل أن تستقر دار سعود الحالية به، فى حضن الجبل، وقبل إعْمَار جده - الشيخ فالح - لها، إلى جوار دار أبى صالحة قبل وفاته، تجاورتْ - قبل ذلك - هضبتان صخريتان، يفصلهما نَبْعٌ صغير، لمائه - قبل أن ينضب - عذوبة الشّهد، يكفى - بالكاد - السائرين نهارًا، والساربين فى غياهب الليل، بَدَتا - الهضبتان - كفلقتىْ الظهر، من بينهما ينساب الماء.

على قلب النَّبْع، تستكين شجرة سنط، عتيقة جافة، لها جزع ضخم، يمنع العبور من ناحية يسكنها القرود، إلى الناحية الأخرى المسكونة بالبشر، يبدو موضع فوران الماء، كفَمٍ بشرى أسطورى، من فوقه ينساب شريانان مائيان، كَطَرَفَىْ الشارب أعلى الفم، يتوجه أحدهما نحو القرود، بينما يتوجه الآخر نحو البشر.

تكررت - دوما - محاولاتُ سكان كل ناحية، لحرمان سكان الناحية الأخرى، من شريانهم المائى، ليس معلوما بالضبط، متى بدأ بينهما النزاع، تُروَى - فقط - بضعُ شهادات قَبَلِيَّة، لبعض مشايخ،

لِحَاهُم بلون شعاع الشمس، تجرى أشهرها، عَلى لسان سعود، نقلا عن جده، عَبْرَ أبيه، أكدتْ تلك الشهادات، عَدَمَ تحقيق أحد طرَفىّ النزاع، للغَلَبَة المطلقة على الآخَر، كثيرا ما ترَمَّلَ العديدُ من إناث القرود، بفعل بنادق الآدميين، كما لا تنسى ذاكرةُ الآدميين، ذلك الاختطاف القردى المهين، للشابة صبيحة، خالة البنت صالحة ـ التى لم تكن قد وُلِدَتْ بعد ....

كانت صبيحة قبل الاختطاف المزمع، تداوم على رعى الإبل، بالقرب من الهضبتين، كم راحت جهود الباحثين سدى، وقد هدّ عزمَهم العديدُ من الأمور، كادعاء البعض، أن قردا نسناسىّ الملامح أَخَذَ بلُبها، فانساقت خلفه خافقة الجسد، أو أن صلة ما قوية، ربطت بينها وبين ملكهم الكبير، أو ....، إلا أن أقوالاً كتلك، لم تُدْمِل جُرْحَ العار حتى اليوم.

عندما أصاب الجفافُ عينَ النبع؛ لم يغير القرود سُكْناهم، بينما اتّخَذ جدُّ سعود، من الرحيل حلاً، فحط رحال داره، بموضعها هذا، المجاور لدار أبى صالحة، يشفى غليلَ الجد، احتفاظُه ـ عند النبع ـ بتعريشة كالخيمة، توارَثَها وارثوه، وآخرهم سعود.

اعتاد هو على زيارات التعريشة، لاتزيدنا ـ كغرباء ـ تلك الزيارات، إلا مزيدا من الوحدة، نحاول جاهدين إثناءه عنها فلا ننجح، يعرف بعيره الطريق، على جانبىّ البعير ينام (خُرْج) زاده، يلقى نظرة على النبع الجاف، يخفق فؤادُه خَفْقَة أسى، تُصلح يداه ما أفسدته الأيام، من التعريشة أثناء الغياب، يحادث نفسه:

بضع ليالٍ بأيامهن سأقضى بالبَر...

يملأ صوته الأجْواء بِـ (يا ليل ويا عين)، يعيد الهواءُ الصدى زومَةَ ضيقٍ قردية، ينْفَك أسْر ضحكاته، تصعد الضحكات إلى عنان السماء، يجود البَرُّ له بالصيده:

غزلان، أرانب، ضبان، جرابيع، ...

يَشَبُّ الضَوُّ - النار - وتنتشر رائحة الشواء، يرسل (راديوه الترانزستور) النغمات، تتفخ رئتاه بالهواء الصافى، ويعتدل المزاج.

تتوَسَّط جزعَ الشجرة الضخم فجوةٌ، كأنها نافذة بين الناحيتين، يرصد - من خلالها - ما يدور، داخل مملكة القرود، تلمحه عيونُهم، ترمُقه محتقرة، يقذفون نحوه بالحجارة، ترسل بندقيتُه عيارَىْ تهديد فوق رءوسهم، ترتفع أصواتُهم حانقةً، يبتهج قلبُه لهذا الفعل.

تمتد أيديهم - فى غيبته - إلى فجوة الشجرة؛ يتفننون فى سَدِّهَا من ناحية التعريشة، تبدو كطاقةٍ متسعة، فى جدار سميك، يزحمونها بخزينهم من المئونة.

يزيح السُّدَّةَ - عند قدومه - تتساقط مؤنتُهم بين قدميه، يوسعها رَكْلاً دون اكتراث، تحملق عينا بندقيته، فى حَبَّات عيونهم؛ فلا يدرون ماذاَ يفعلون، يعْمَدُ - زيادة فى النكاية - إلى سَدِّ الفجوة من ناحيتهم، يَصُفُّ بها زادَه هو، تدق أقدامُهم السدةَ بعنف، آملين أن يأخذه التَّعَجُّلُ بالرحيل، تهتز رأسه غيظا، لا تغيب عن مُخَيِّلته أبدا، ملامحُ صبيحة قبل اختفائها - رغم صِغَر سِنِّه آنذاك - يتساءل مع نفسه:

كيف راحت؟

وأين تكون؟

غير مسلِّم بكل ما تواتر، إلى سمعه من أقوال.

...

أخذتنى المحاولة ـ ذات مرة ـ لإثنائه عن الذهاب، وحاول حسين، وجدَّ صلاح فى تمثيل دور المستعطف، أملين فى بقائه بيننا.

منحنا ـ هادئًا ـ كلمات التقدير، وقبل أن تطمئن قلوبنا، تساءل فى حسم:

أأترك ميراث الأجداد ؟!

تفاجأ ـ هناك ـ بحفل كبير، لتنصيب ملك القرود الجديد ـ بعد قهره لسابقه العجوز، كثيرًا ما شاهد مراسمَ كهذه، أطار ضجيجُهم النوم من عينيه، بالغوا فى دَقِّهم لِسِدَّةِ الشجرة، غير آبهين ـ على غير العادة ـ بِأَعْيِرَةِ التهويش النارية.

يتملكه الحرصُ ـ منذ فترةٍ ـ ألاَّ تقع إصابات، أوتُزْهَق أرواح، ربما خشيةً من العاقبة، أو رغبةً فى عدم إنهاء هذا الصراع ـ المدهش ـ المتوارَث، يوشك الوَهَنُ ـ مع هذا الضجيج ـ أنْ يتسلل إلى هذا الحِرص؛ قال:

لابد أن يتوقف هذا الهراء...

واتخذتْ بندقيته وَضْعَ الرَّمْى المُصيب:

لحظات وسَادَ بالأجْواءَ الصراخُ، ودارت عيون الرَّعِيَّة منزعجة، لِمَرْأى الدم المتفجِّر، من عين كبيرهم،...

ولأول مرة اتخذ سعود، من الانسحاب إلى الديرة حلاً.

فى ذهابه الأخير ـ بعد الحادث ـ، مَلَكَ التَّوَجُّسُ كيانَه، مسح الموقعَ بناظريه طويلاً، لامَسَ الارتياحُ قلبَه، قال مطمئنا:

ما من شئ يُريب ..،

امتدتْ شفتاه مستهينة، ربتتْ كفُّه (ماسورة) بندقيته، قال:

كيف تُداخلنى الرِّيبَةُ وأنتِ معى؟!

انشغل فى ترتيب زاده بالفجوة، انشبُّ الضَّوُّ ـ اتَّقدَتْ النارُ ـ نَضجَتْ القهوةُ العربية، فوق نار هادئة، كان رأسه فى حاجة إلى بعضها، أهَالَ بعضَ الرمال، فوق الجمر الملتهب، اتخذ ظهْرُه جزعَ الشجرة مسندا، أسلم جفنيه للنوم، تداعبه آمالُ صيدِ الفجر القادم.

...

أحسَّ جفافًا فى حلقه، تحسَّستْ إحدى يديه (زمزمية) الماء، رفعها ـ آليًا ـ نحو فمه، ومن بين بقايا الوعى، اصطدمَتْ عيناه المنفرجتين، بصفين من شُبَّان قردية، بعصىٍّ غليظة، وبخطٍّ من غيظ، تصدره العينُ الوحيدةُ ـ الباقية ـ لكبيرهم...،

نَفَضَ النومَ عن رأسه، فاجأه تَوَجُّه بندقيته هو نحو صدره، فيما تقبض عليها يدان أنثويتان، لتلك التى تحتفظ ـ لا تزال ـ ببقايا الملامح القديمة، لصبيحة خالة البنت صالحة!

تنويع على لحن المواجهة
(الانفلات من بين أنياب الهلاك)

مرات قليلة هى، التى سَاند الحظُّ فيها سعودًا، ربما كانت أخطرها جميعًا هذه المرة، رَغْم يقينه الأكيد، أن بندقيته الموجَّهة إلى صدره هو، خالية من أيَّةِ طلقة، إلاَّ أنه لم يستطع منع قلبه، من بَعْثِ خَفَقَاتُ الخوف متعاقبة.

لم يدر بذهنه أبدًا، أن تكون صبيحة - التى اتُّهم القرود باختطافها قديما - تحمل بندقيته الآن، بل لم يدر بذهنه أساسا، أنها حية تُرزق، استطاع عقله - والخطر مُحْدِقٌ بحق - أن يرسل أسئلته الباحثة عن جواب:

على أىِّ هيئة تواصلت حياتُها معهم؟

وبأيَّةِ لغة تَمَّ الخطاب؟

وتحت أىِّ مُسَمَّى تتدرج هذه الحياة؟!

تخلصت رأسُه سريعًا، من كل لاوعى، لا بد لكل حركة له من ضابط دقيق، شُبَّان القرود - الغُشْم - بعصىّ أكثر غشمًا يتسلحون،

لا وقت يسمح بحماقة ما، مهما صَغُرَتْ، تتدافعه أفكارٌ شتَّى فى وقت قصير.

من فوق الشجرة، ذات الفجوة بالجذع انطلقت ـ فجأة ـ نَدْهَةُ الحياة، وكأنَّها أرادت أن تردد سؤالاً أثيراً:

أليس الموتُ صِنْوَ الحياة؟

هـا هى نَدْهَةُ الحياة، من أعلى جذع ميت تنبثق، على هيئة صرخة غضب عاتية، أطلقها كبير منهم، حملتْ بين موجاتها كلَّ قسوة العشيرة، انفرط لها ـ سريعًا ـ العقدُ المسلح لشبان القرود، لم تنتبه أعيُنهم المتوترة، لصاحب الصرخة، ذلك الهارب من بطشهم، الذى كان مليكهم ـ قبل انهزامه ـ والمحتضن لأعلى الجذع الميمون...

تحولَّتْ عينا البندقية لأعلى ـ آليا ـ نحو مصدر الندهة الملكية المُلْتاعَة.

ضربت قدما سعود المتحفز الأرض، كفرس ثائرة، إنها لحظة فارقة ـ يعلم ذلك ـ، قبضت إحدى يديه، على ماسورة بندقيته، بَاغَتَتْهُ صبيحة بدفعةٍ متوحشة، أسْقَطَتْهُ مُرْتَطِمًا بالأرض، يدُه متشبِّثةٌ ـ لازالت ـ بالسلاح، لطمَتْ يدُه الأخرى الخدَّ الأنْثوِىّ المتوحِّش بعنف، كمن يبحث عن الحياة، وسط أشلاء المَوتَى، أرسلَتْ الحنجرةُ الآدمية لصبيحة، صرخةً قردية فَزِعَة، وراحت عينا سعود المشدوهتان تتابعان قفزاتها، وهى تبتعد ببدنها سريعًا، كمن مسَّها جان، تَتبعها قفزاتُ ملكهم الجديد ـ الأعور ـ تنثر غبارَ الحِقْد فى سماء غريمه القديم.

لملم سعود ذاته، أعاد تعمير البندقية، ملأ جرابه ببقايا زاده، وفوق ناقته راح لسانُه يلهج، بكلماتٍ تصلح نشيدا للعودة، تاركا خلفه الأقدامَ المرتجفة، لصاحبِ النّدهة العجوز، تبدأ ـ متثاقلة ـ خطوات الرحيل نحو المغيب.

ومنهم مَن يغنى
للوحدة موَّالاً

فوق أرض المزرعة البعيدة لسعود، تبدو فى الأفق محاولة جديدة، لتحقيق إنجاز آدمى، محاولاته لا تتوقف، يملؤه الولعُ بِصُنْع علاقات جديدة، مع الحيوان الأشهر بالديرة، الصراع معهم وَسَمَ جولاته بسماته، بين الحذر والكراهية تدور الدوائر، على طريق الحياة دون إرادة منهم يتعايشون.

قليلةٌ نجاحاته، أهمها ـ فى نظره ـ تجنيده للقرد ظافر، رغمًا عنهم، ولأن ثائرتُهم دائمًا ما تثور لكرامتها، احتالوا على الأمر، حتى نهشوا رقبة الخارج عن طوعهم.

على بُعد أميال من الديرة، تقع المزرعة، تتوسَّطها بئر ضيقة، عميقة، ترفع الآلة ماءها الأقرب إلى الملوحة، يصب عَبْر خراطيم ممدودة، قُرب جذوع النخلات، تكسو السَّعَفَ خُضْرةُ الحياة، مُغلَّفة بِصُفْرَة الموت.

بُقَعٌ من حشائش متفرقة حادة الأوراق، نبات العشار عديم الفائدة، وحَبَقُ بحر، تحمل وريقاتُه كلَّ خصال النعناع، تعترينا

الدهشة؛ كيف تمَكَّنَ هذا النبات، ذو الرائحة الرقيقة، من التواؤم مع كل هذا العَجَف ؟!

يصيح سعود:

قسمًا؛ لن تطأ قدمي المزرعة، دون صُحبتكم.

... نعيد القراءة لملامح طريق الذهاب؛ تأخذنا صراحة التضاريس؛ لا مُهَادَنة ولا غموض، لا تَخْفَى عنّا، ضرورةُ احتفاظ كلّ ملمحٍ بداخله، بمعظم أسراره الخاصة.

تغوص أحذيتنا، فى التربة الناعمة الملحة، تبحث عيوننا فى قلب البئر العميقة، عن لمعة الماء.

يسيطر التوتر، على القرد الوحيد هناك، كلما وقع بصره علينا، يحاول الانفراد بسعود، كحبيب يعْمَدُ إلى إقْصَاء محبوبته، عن سرب البنات.

تُصفق كفًّا سعود تصفيقًا مميزا، ترسل رأسُه إشارات، بَدَتْ مُتَّفَق عليها، يهدأ قلبُ الحيوان رويدا رويدا، تمسح الكفُّ الآدميةُ شَعْرَهُ البنىّ الغزير.

يجمعُ حزامُ الجلد، بين وسط سعود، وبين كل جذع نخلة طويل، تُتابع أقدامُه الصعود، تتبعه قفزات الحيوان، حاملا فوق ظهره جراب الأعواد ـ أعواد التلقيح ـ يمد سعود يده بالجراب، تخرج بالعود أو العودين أو...، يثبتها فى مكانها بين السَّعَف، يمده القردُ بالمزيد، ينتقل خَطْوهما بين النخلات، من فوق الأرض يتم تلقيح القصار، لا تُفْلِتُ عيونُنا فريقَ العمل شديد التناغُم.

يدفع صدر حسين بشهقةُ فزع، تقفز به قدماه، تنجحان فى تفادى مطاردة عابرة، لثعبان أرقط مع أنثاه، دونما إلقاء بَال، لأيَّةِ أنفاسٍ بشرية كائنة.... منفردة أومجتمعة، تمرُّ صراصير وجعارين، متباينة الأحجامِ والألوان.

ارتفعت يدُ صلاح سريعًا إلى قفاه، انتزعَتْ دودةً خشنة، أسْقَطَها فعلُ التأبير. دون قصد - من فوق سَعْفَةٍ حائرة، نظراتُ خوفٍ احتلتْ عينيه، قَضَتْ - النظراتُ - على أيَّةِ محاولة، لإظهار الموقف هزليًا، أحدَثَ فَمُ القرد ما يشبه الشقشقة، أرسل صوتُ سعود - المتابع - إيضاحًا، بأنَّ الدودةَ غيرُ مؤذية، فعاد لِحَوَاسِّ صلاح الهدوء.

تنتهى طقوس العمل سريعا، يلتئم شمْل جمعنا الصغير، تنفض عصا سعود الترابَ المحروقَ، مِن حفرة قديمة، تتجمَّع كِسرُ الأغصان بين يدىَّ - إذ صرتُ مُلما بالكثير من المراسم -، داخل الحفرة تتقد النار، تنفتح بطنُ حقيبة سعود المنتفخة، يخرج منها نصفُ التَّيْسِ - الجِدْى - ينطرحُ فوق الجَمر، تمتد بيننا الأرغفةُ البدوية، للأكْل طعم الهواء النقى، ولون شعاع الشمس، المتسلل عَبْرَ السَّعف المتراقص، ندفع إلى الحيوان بأطعمته - المخصوصة - تصيبُ ذيلَه هزهزاتُ الرضا، تحك مؤخرتُه الأرض فى دلال، نسائل أنفسنا:

كيف يتحمل عزلته هذه؟ وهل من أسباب منطقية لها؟

فى طريق العودة - ودون أن نجاهر بالأسئلة - تسعفنا إجابة سعود:

قرد شَرُود.

هكذا يحب بعضُهم، أن يغنى موالا للوحدة

أفرج صلاح عن تساؤل بدا عفويًا:

ألا تَكُفّ ديرتكم هذه عن ألاعيبها أبدًا؟

أضاف:

كثيرًا ما تُبْدِى أحد أسباب وجود الشئ، وتُخْفِى فى جوفها العديد من الأسباب!

...

أحاط بنا الصمت، دون أن ننسى، آخر النظرات القردية، لذلك الشَّرود، وتسكن آذاننا - إلى الآن - أخرُ صيحاته المودِّعة.

بنت القرود السمراء
تقع فريسة حُب كبير

نلملم شتات الحَكايا...

نجمع الكلمات، من فوق أطراف الشفاة ...

تختلف الألسنة:

بدوىّ، ...

حضرىّ.

تنعقد الجلسات:

بالجلسات، تلتئم جروح الحكايات، تجعل منها خيالاتُنا واقعًا، يُمكن أن يُعاش، أو ـ على الأقل ـ يتلاعبَ بعقولنا، فَتخَالُه العقولُ حياةً من لحم ودم.

ولِلسَانَىَّ سعود، ومحمد سعيد ـ أحد قاطنى المكان ـ النصيبُ الأكبر فى الحَكْى...؛ بنت القرود السَّمراء، مُولَعٌ قلبُها، بابن كبير (شمبانزية) الديرة!

وهل يجوز؟

تردد السؤال، بين عقلاء قبيلة القرود، مشايخ وفتيان، دون انعقاد اتفاق، وبَدَتْ السيرة (لبانة)، فى أفواه الإناث ـ جدات وأمهات وبنات ـ.

على ناصية الجبل الأبيض، تتسكع أقدام القرد (العفريت) ـ فى أول سن الصّبا هو ـ تُلامس مؤخرتُه الأرضَ، تنحط ذراعاه فى وسطه، يطلق لـ (بَرْبَشَة) عينيه السَّراح، يلوح فى الأفق سرب فتيات القبيلة الحسناوات، تُدخل حيلُه أطواراً جديدة، ليلفت انتباههن؛ يرفع مؤخرته، لامعة هى كمرآة، تعكس ضوءَ الشمس، يقع الضوءُ على أعينهن، ترتفع أيديهن بارتفاع الأهداب، تسترق عيونهن النظر، ترتسمُ على شفاة بعضهن ابتسامةٌ ماكرة، فيما تصدر حناجرُ بعضهن الآخر، زومةَ ضيقٍ رقيقة مُفعمة بالحرج.

تتبادل عينا السمراء ـ الصَّبِيّة ـ مع عينيه الغمز...، يتردد بين الكبار انحدارُ أصلها، إلى جد شمبانزى وافد ـ قديماً ـ من ديرةٍ غير معلومة، بالعيون الغامزة (انضرب) موعدهما؛ خلف الجبل الأبيض ذاته سيكون، الليلُ لم يُنزل لهما ستاره الأسود، والقمر بدر فى كبد السماء.

مالت رأسُه يُمْنَةً ويُسْرَة.

أمالت رأسُها يُمْنَةً ويُسْرَة.

امتدّتْ أماميتاه، فوق حصى الأرض.

مدتْ أماميتيها ...

استدارَ ظهرُه، وارتفعت مؤخرته.

أدارت ظهرها، ورفعت مؤخرتها.

تلامستْ المؤخرتان، وراحا في سباق، لاقتناص لحظات الاشتهاء، نَبَّهَهُمَا نورُ البدر، كشف لهما عيونُ العُزَّال، المراقبة للمشهد الآسر، احتل بدنها الارتجاف، فرَّتْ بها قفزاتُها عائدة.

يتردد السؤال:

وإلى متى؟

على قارعة الجبل، تعود خطواتُه لتتسكع، يتفحص ملامحَ الفتيات، المصفوفات كحبات العقد، يصيبه - هذه المرة - الاضطرابُ، تفتقد عيناه نظراتِ البنت السمراء، تَعْتَرِي فؤادَه الحسرةُ، يصله الخبر:

أسيرةُ جُحْرِهم هي، تهز كيانَه ابتسامةُ الفتيات الساخرة، يتوالَى سأمُ الأيام، يملأ صدرَه الضَّيِّقُ، تحوم به أقدامُه، بالقرب من جحر الأحبَّةِ، تتلاقى عيونهما بعد عناء، بالبريشة - كالعادة - ضربا موعدا جديدا، وبالإشارة إلى المؤخرة المُحْمَرَّة، عُرِفَ المكان، خلف الجبل الأحمر - لا الأبيض - سيكون، يبدو الليلُ - هذه المرة - أكثر تواطؤا معهما؛ ها هي ستائر ظلمته تنزل، وهلالُ القمر جنين في رحم السماء لا يزال.

تزداد الحيرةُ داخل عقول حكماء القبيلة؛ لم تُجْدِ معه صيحاتُ التهديد، كما أن جلسات التأديب، غير مضمونة العواقب، - زواج بنت من أصل شمبانزى وافِد، لفتى من أهل الديرة باطل -؛ هذا عُرْف!

- تتحول ثرثرةُ الكبار إلى صرخات.

اقتراحات عديدة يتم لها التحضير.

عند سَفْح الجبل الأحمر، أنهيا قُبْلةَ اللقاء سريعا، أنْهَتْ أيديهما - مضطربة - عَقْدَ (صُرَّةٍ) صغيرة، على قليل من الفُتات، وعَبْرَ سوادِ الليل، ألقتْ عيونُهما، على أرض العشيرة، نظرةَ الوداعِ الأخيرة.

موقعة ثلث الليلِ الأخير

تنبهت قبائلُ القرود المجتمعة، على اختفاء بنت القرود السمراء، والقرد الأسود (البصباص)، ذهب ظنُّهم جميعا نحو سعود، يزيد من شكوكهم؛ نجاحُ حيلته القديمة، فى إقناع القرد (ظافر) بالعيش معه، بل ومناصبته لهم العداء، كما لايخفى عليهم، قرد مزرعته الشرود، الذى اعتزل عشيرتهم.

يكلُّ حَكْىُ سعود ويرتاح، ولِحَكْيِه لابد أن نمنحَ الآذان.

داست أقدامُهم كلَّ شبر فى الديرة، تصل أصواتُهم إلى آسماعنا، لا تساعدنا الجرأةُ، على فتح الأبواب، الزومةُ تِلْو الزومةِ تخرج من حناجرهم غاضبة، أخبرَتْنا خبرةُ المكان، أن شيئا خطيرًا قد وقع، هجماتهم ـ قبل ذلك ـ كانت تنتهى سريعا، بحصولهم ـ غالبًا ـ على بعض طعام أو شراب، العَسُّ ـ هذه المرة ـ كائنٌ طوال الليل.

يدعَم ظن العشيرة؛ اختفاءُ سعود ليلتها عن عيونهم، من أين يأتيهم العلم، بأن ليْلَة أخْرى سوف تنقضى، قبل أن يعود؟

بديرة بعيدة هو منذ الأمس، فى محاولة جديدة، للبحث عن عروس، تنوب عنه البنت صالحة - جارتهم -، فى رعاية أغنامه حتى يعود، تُحَدِث شفتا صالحة (مصمصةً) آملة، تسيطر على قلبها حُرقة الوحدة التى لا تهادن، غير متنبهة - ربما - لِمَا تلوكُه الألسنة، حول صلِتها بذلك القرد، الملازم لها غالب الأوقات.

يملأ الظنُّ قلوبَ القرود؛ أن غيبةَ سعود لابد لتصريف أمر الهاربين - هكذا يَبدو افتراضنا لما يدور -.

(رأسا على عقب) وجدَ سعود الدارَ عند عودته، بادَرَه سؤالُ حسين:

متى تأتى العروس يا ولد؟

امتدت شفتاه ممتعضة، صبَّ لسانُه اللعنات، على كل الكائنات الشريرة..!

اعتصمنا بصمت قلق، فى نفسى دار تساؤل حائر:

أيَّةُ كائنات يقصد؟

القرود، أم الكائنات الشريرة، التى أقْنَعَتْه أمُّه - قبل أن ترحل - بأنها تسكن جسده، وتُفْسد عليه كلَّ محاولة، للعثور على العروس.

عاد الانتفاخ إلى أوداجه، خرج الزفيرُ حارًا من بين شفتيه، ممتزجا بشكواه:

أولاد القرود، نثروا أحشاء الثلاجة فوق التراب، تركوا فضلاتهم فى كل ركن.

أخذته نوبةُ تأفُّف...

قال حسين محاولاً تغيير الموضوع:

سأتحفكم بتجهيز العشاء.

قلت:

وأنا عليَّ الشاي.

دفع صلاح سعودًا نحو الحمَّام، قال:

خذ دشا أولاً، الماء البارد يزيل أوجاع السفر.

كنا نتحايل، لننأى به عن بحور الشكوى الغريقة.

حول العشاء، عَمَدَتْ نِكاتُ حسين القديمة، إلى التَّسْرية عنه، قال سعود:

ألا يكفى أيديهم ما اختطفت من خِراف؟

قلت:

مد يدك للأكل يا رجل...

قال:

هل غرَّهم صبرى، على اغتصابهم لجراب المسدس، بعد نهش رقبة ظافر؟

فى الكاسات الصغيرة انصبَّ الشاى.

دخل الليل دهاليز ثلثه الأخير، هبَّت نسمةٌ جنوبية طرية، من خلف إحدى هضاب الجبل متعدد الرءوس، اقْتَحَمَتْ آذنَنا أصواتُ شجارٍ حيوانىّ مُسْتَعِر، هبَّت أجسامنا واقفة، جَرَتْ قدما سعود نحو داره، عاد محتضنا بندقيته، وسيفًا قديما بين (عُكَّازين)، سحب حسين السيفَ، واتخذ من أحد العُكَّازين سلاحًا، تاركا الآخر لصلاح.

فوق الهضبة تَتَابَعَ لهاثُ صدورِنا، أدْخَلْنا عيونَنا فى قلب المعركة الدائرة، فَرَّقَتْ طلقاتُ البندقية أغْلَبَ المتشاجرين، هبطت بنا الأقدام نحو السفح، كشفت أسنان سعود عن ابتسامة قصيرة، فيما ازدحمتْ قلوبُنا بالاضطراب.

طاحت أسلحتُنا خلف فلول الهاربين؛ نجحت عصاى، فى شَجِّ أحد الرءوس، أصاب السيف ساقَ أحد كبارهم، وداخل كهفٍ قريب، عثر سعود على جراب مسدسه المُغْتَصَب، فيما أسَرَتْ يداه أنثى قِرْدِيَّةٍ صغيرة.

بين راس سعود
وقدمه المنهوشة

- ١ -
نوايا غير خالصة

تبدو تضاريس الطبيعة، فى ملامح أحياء المكان، كثيرا ما تجد حيوانا، يشبه أحد سكان الديرة، وكم من ولد، تخاله قردا فى ملابس البشر، تحار العقول، وتتوه الأفهام...

ليس بالأمر الهيِّن - رغم هذا الخلط - استقطاب قرود، لمسايرة بَشَر، قد تقع وقائع تلقائية، تكتفى العقول فقط - بشرية كانت أو حيوانية - فى تفسيرها تبعًا للهوى.

لسعود نظرةٌ - نظنها خبيرة - فيمن يمكن ترويضهم، وقعتْ نظرته - هذه المرة - على قردِ مستدير الوجه، نسناسىّ الملامح، له خِفَّة روح، لا تضاهيها إلاَّ خفّة حركته فوق القمم...، ولإشاراتهم صار سعود مُدركًا:

ارتفع ذيل القرد، رقَصَ أحدُ حاجبيه، رمت عينُه اليمنى، خطًا من نظر نحو المُريد.

فاجأنا صلاح - المتنبه - قائلا:

آه يا ابن النجسة ...، (وبتبصبص كمان)؟!

بَدَتْ على سعود الدهشة، من ملاحظة صلاح الدقيقة لما يدور، قال:

أبدًا يا سيدى، المحروس طالب الود!

تطورات عِدَّةٌ طَرَأَتْ، على سيْر علاقتهما - سعود والقرد - معًا، لم تَرْقَ - حتى الآن - إلى درجة الصداقة، يقول سعود:

كِلَيْنا، فى طريقه لإتمام عهد التآخى.

لم تتوقف غمزات صلاح الهازئة، يشاركه حسين، الذى أدركه - مؤخَّرا - الفهمُ، قال:

حكايتك مع ظافر حالة خاصة، نوايا القرودِ نسناسية الملامح غيرُ خالصة.

تحركت رأس سعود حركة عدم الاهتمام.

و ...

عند أول مناوشة مع البشر، انتظم النسناسى، فى طليعة صفوف جنسه، متخذا من يديه أقوى قاعدة، لإطلاق الحجارة، نحو رأس سعود.

- ٢ -

بقعة دم أسفل الكعب

ها هو كلب (الوولف) الصغير، يجلّلُ الفشلُ رأسَه...

أوَّل كتيبة الكلاب هو، كم وعد سعود كثيرا بإحضارها، وقَسَمُه الدائمُ معروف:

(والله لجايب لكم - للقرود - كلاب وولف، تقطع دابركم، يا أولاد الهرمة)

يَظهر سوادُ أسنان حسين، فمُه مفتوح عن آخره، يرتفع صدرُه ويهبط، بفعل القهقهة.

تتوقف عند شفتيّ ابتسامةٌ باهتة، نظرتى للأمر لها وِجْهَة غير ساخرة.

لم يقض الوولفُ الصغير بيننا، من الليالى إلاّ القليل؛ أسرع مما نتصور جاء افتقاده، وهَنَتْ - لذلك - عزيمةُ سعود، لم يعد حماسُه، لإحضار كتيبة الكلاب كما كان، قال فى أسى:

هل خطفوه أولاد الحرام؟

تمضى شهور الديرة متشابهة؛ ما نُمْسِى فيه نُصبح فيه، طالت المدة، دون أن يأتينا عن المخطوف خبرٌ، تتصتُ آذانُنا، علَّها تلتقط أىَّ نُباح مغاير، النباحاتُ الليلية المألوفة معلومة المصدر، زمنٌ مضى، ولم يجِدّ عليها أىُّ تغيير ملموس.

من قلب مَجْرَى الوادى الجافّ ـ تتخذ سيارة سعود طريقَها، من المزرعة البعيدة وإليها، تربةُ المَجْرَى ناعمةٌ، مختلطة برمال أنعم، من تحتها توجد طبقة ثابتة مستوية، تساعد على ازدياد السرعة...

اعتراه ـ بعد آخر زورة للمزرعة ـ الاضطراب، كسى العرق بدنه، نَشَعُ العرقِ بُقَعٌ واسعة، على صفحة ثيابه، زوغانُ عينيه بادٍ، يتابع صدرُه نوبات من صعود وهبوط...

حَطَّ بدنُه وسط جلستنا، انطبعتْ تحت أحد كعبيه، بُقعةُ صغيرة من دم، يحاول منديله كتم مصدره.

أَوْقَفَ الاندهاشُ ألسنتَنا، عن إطلاق أسئلة مُفترضة، خرج حَكْيه من داخله متقطعًا عليلا:

انقطعت طريق العودة عليه ـ يقول ـ بخمسة قرود ضخمة، كلبية الملامح، لَفَّهُ اليقينُ، بأنَّ أبدانَهم، يمكن أن تكون نَهْبًا لعجلاته، عَمَدَ فى انطلاقه إلى طريقة (الزِّجْزاج)، أطَاحَ يمينُ السيارة بأحدهم، تكفَّلتْ المُقدِّمةُ بآخر، وكادت العجلات الأمامية، أن تدهس اثنَيْن، اشتدَّ صراخُهم، ولاحت فى الأفق بشائر الانتصار، الآلة طوع يده، وزهو الثقة يملأ رأسه،... أخذته الغفلةُ للحظة، امتدَّ الصراع حتى منعطف بين جبلين، احتل قردان صندوق السيارة، دقَّت

أطرافهما المرعوية سطحَ (الكابينة)، والزجاج الخلفى، سحبت إحدى يديه، عصاه الغليظة من خلف المقعد، أسَرَّ فى نفسه:

سَتُحْسَم الآن إذن معركةٌ أرضيةٌ.

لامَسَتْ إحدى قدميه الأرض، من بين الغفلة واليقظة، وقع بصره عليه ـ بدنٌ ممتلىء لـ (وولف) متعجرف ـ استعادت الذاكرة الأدمية ـ لثوان ـ صورةَ الحيوان الصغيرة قبل اختطافه، تسببت الصورة ـ لحظة استعادتها ـ فى انتزاع الوولف لزمام المبادرة، حاول ذهنُ سعود البحثَ عن مَخْرَجٍ يُتَّخذ، أعاد رفعَ قدمه عن الأرض سريعًا، أدارَ آلةَ النَّقْل لأقصى سرعة، وأطْلَقَتْ أعماقُه آهَةً طويلة، وَازَتْ الآهَةُ، ذلكَ النَّزْفَ السَّاخنَ للدم، تلاعبت الخواطرُ برأسه ضجرًا؛ كيف تَمَكَّنَتْ الأنيابُ الكلبية، من نهش قدمه، بكل هذه السرعة؟!

- ٣ -

رضيع لبن القرود

صارت له فحولة الخِرْفان؛ قرنان مشرعان، صوف كثيف، (ليَّتة) ممتلئة، ترتفع كثيرًا كاشفة عن عورته، تبدَّلت أظلافُه الناعمة ـ الآن ـ بحوافر حديدية.

ظل استرداده حلمًا، فى وجدان سعود، سَرَى الحلم إلى وجداننا رغمًا عنَّا؛ لم نهضم بعد، وقائع فقد كلبه (الوولف)، وما تبعها من أحداث، انتهت بنهش قدمه، يقول صلاح ـ منصبا نفسه متحدثا باسمنا ـ:

لابد أن يعترينا موقفٌ ما، تجاه أيَّة مسألة تقع بالديرة، وإلا انتفت عنا صفة الإنسانية ـ هكذا تأتينا فلسفته، لا يُفلت فرصة إلاَّ وبثنا إياها ـ.

تستعيد كلماتُ سعود حيثيات الاختفاء، يقول:

(عينى عينك) اختفى الطّلَىُ ـ الخروف ـ الصغير، عند أحد السفوح، كان المرعى ـ آنذاك ـ، مع أوَّل انحناءة، نَقُصَ عددُ الطّليان

الصغار، من فوق أحد التلال، تتلاعب شنابُ القرود، تتحسَّسُ أيديهم مؤخراتِهم الحمراء باستهانة، تشير أصابعهم إلى الأمام، ترسل خطوطًا من (قلّة الأدب) نحوى؛ هاهم وبسهولة يمتلكون قدرة الكيد لى.

بالأمس فقط، مرَّ عام على الاختفاء...

فى إحدى رحلاتنا معه إلى المزرعة، وعند نفس المنحنى؛ تلبَّسنا قدرٌ من الابتهاج لا ندرى حجمه، ذلك عند وقوع بصرنا عليه، بناء على إشارة سعود، الذى اتسع صدره، لمزيد من الهواء الطازج، جاءته الآن فرصة الردّ، كما يهوى فؤاده - هكذا يقول - بدا الخروف، كمن دحرجته سَقْطَةٌ متعمَّدة، خدوشُ أرجله ظاهِرة، وقَطْعٌ عَرْضىٌ غائر فوق العين، وكَسْرٌ بادٍ بأحد قَرْنيه.

داخَلَنا الظَّنُّ، بأن عِراكا ما دار، بينه وبينهم، أودى فى النهاية، بإلقائهم له فى طريقنا.

فاجأنا جَمْعٌ منهم بالهجوم.

مُطاردةٌ قصيرة دارتَ.

مِلكا للجَمْعِ الآدمى - الآن - صار.

عاد خنجر سعود ليسكن جرابه، هدأتْ العصا فى يد حسين المتحفز، وظل احتفاظنا - أنا وصلاح - بالرغبة فى عدم الإيذاء.

ترتفع (لَيَّتُهُ) - رغم امتلائها - إلى أعْلَى، كَما يرتفع ذيلَ قرد، يتكِيءُ على مؤخرته، يحك بها الأرض، تبدو قفزاتُه أكثر قردية من القرود، تثير ثرثرتُه الريبةَ، يمتنع حلقُه عن (مأمأة) الأغنام!

صوَّب صلاح نحوه نظرة ضِيّق، صاح:

الله يجحم جدودك.

رفع (عكازه) عاليا، كاد أن يهوى به، فوق قرنه السليم، حالتْ يدى بينهما، قلت:

يا ابنى المخلوق ابن البيئة ـ واضعا عن عمد، كلمة المخلوق بدلا من الإنسان ـ محصور هو وسط دائرتنا، بادره صلاح بهجمة عنترية، ألْزمَتْه الأرض، أسرعتُ فى جَعْله رَهْن القيد، وفرضتْ الأسئلةُ نفسها:

أيمكن أن يستعيد خِصال رفاقه القدامى؟

أم يعتادوا هم طباعَه الجديدة؟

يصر سعود، على إقحامنا فى كل أمر، فيما أرى ـ أوهكذا يُفترض ـ أننا لسنا معنيين بما يدور، يقول حسين:

ماذا نفعل، وقد تسللَتْ إلى داخلنا ـ آليًا ـ مظاهَر التفاعل مع حوادث المكان؟

يرفع صدره بشهقة عميقة، يضيف:

على الأقل نتلهى بما يدور، عن الغرق فى غياهب ذكر البعيد، أو الانهماك فى صنع مزيدٍ، من أطفال الطين.

تعمل فينا كلماته، عكس ما أراد لها؛ إذ تروح خواطرنا سريعا إلى قرانا، تلك القابعة بالقرب من النهر.

تعيدنا حركة الأسير الدائبة، إلى حدث اللحظة، فى حوض السيارة يتمدد، محاولا التخلص من القيود، عيناه شاخصتان، معلقتان بسلسلة القمم الممتدة للجبل، حيث لم تُفَلّته بعد، عيونُ جمع القرود، لا تستقر لهم أبدان، يوازِون بقفزاتهم سُرعةَ السيارة، فى عناد.

خرج لسان سعود لهم شبرًا، تبادلنا نظرات الظفر، ورَانَ صمتٌ قصير، قَطَعَهُ قوله المفاجىء: ـ

أفتونا يا شباب:

أيصلح لحمُ رضيع لبن القرود هذا للأكل؟!

لِعْب العَصَارِى

يزداد انتشار نبات العشّار[1]، فى بطن الوادى ـ وقت جفافه ـ وعلى الجانبين، تـتّسع رُقعةُ أوراقه شديدة الاخضرار، التى سرعان ما تقع جافة، تفترش أرضًا ناعمةَ الرمال، تَحدُثُ خشخشاتُها تحت الأقدام، يرتد صداها فى البدن قشعريرةً مُحَبَّبةً، يُزهر ـ النبات ـ فى وقت معلوم، يُثمر كراتٍ خضراء، بحجم حبّات (اللارنج) الكبيرة، تمتلك وزنا خفيفا، يخالها المرءُ جوفاء، أومحشوّةً بلوف النخيل الجاف.

تنقسم عصارينا، بين جلسات الشاى، وبين لعب الكرة، ثلاثتنا ـ أنا وحسين وصلاح ـ ورابعنا سعود ـ غالبًا ـ، يشاركنا بعضُ طلاب المدرسة اللعب، ساكنو الهِجَر[2] القريبة، يختص صلاح بتنسيق المواعيد معهم، حيث لهم عليه الكثير من الدلال.

---

(١) العشار: نبات صحراوى، له أوراق عريضة، وثمرة جوفاء فى حجم اللارنج، تعافه الحيوانات.

(٢) الهِجر: جمع هجرة؛ القرية الصغيرة النائية.

تمتلئ المرتفعات من حولنا بالقرود، لا يزال يدهشنا تباينُ أجسادهم وهيئاتهم، تَنْدَسُّ عيونُهم، تتحرك أعضاؤهم - عن بُعد - ممثلة اللعب.

ترتفع أصواتنا مهللة لهدف سُجِّل، أو مُحْتَجَّة على آخر غير صحيح.

ترتفع أصواتهم هناك.

يتوقف لعبُنا للحظات.

نتمنى أن تنشبَ بينهم معركة كبرى، نكتشف من خلالها مزيداً من طقوسهم الحياتية.

نعاود الركض خلف كرتنا المطَّاطية، فوق شفاهنا ترتسم ابتسامات محايدة، يتخللها كثير من الاختلاف.

وثمة تبادل للأدوار يحدث - دون اتفاق -

في عصارى الشاي:

يحتل القرود ساحة اللعب، بثمرة العشار الخضراء، تتلاعب أقدامهم، لا تستطيع عيوننا تغافلَ ما يدور، يكشف اللعبُ عن امتلاكهم للكثير من المهارة.

تساير فكاهةُ صلاح الطلاب - أثناء اللعب - يتصايحون منادين المعلمين بأسمائهم المجردة، يعترينا - أنا وحسين - لذلك بعض الضيق.

تَعَافُ سائرُ الحيوانات النباتَ، تصيدُها مرارتُه الشديدة، جزوعُه الجوفاء الهشَّة فى كل مكان، تملأ الضحكةٌ فمَ سعود، قائلاً:

أخيرًا انكشفتْ فائدةٌ للعشار؛ لعبُ القرود بكُرَتِه!

جدَّتْ على لعبهم ملامحٌ جديدةٌ؛ بين فريقين صار التنافسُ، وللفُرْجَةِ أصبح فى أعيننا وقعٌ جديد:

أجسادٌ نحيفةٌ خمسةٌ - فريق - بملامح نسناسية، فى ناحية.

وستةٌ - فريق آخر -، بملامح كلبيَّة ممتلئة الجسد، فى ناحية.

دَارَتْ بين الستة ما بدا أنه مفاوضات، انتحى - بعدها - أحدُهم جانبًا؛ داعبتْ أقدامُه - وحيدًا - إحدى الثمرات، تتوقف أقدامه عن المداعبة للحظات، يرمى نظرات متقطعة نحو الفريقين المنهمكين فى اللعب.

هَرَجٌ وجَدٌّ، دفعٌ وجذب، حَجَران متوسطان فى كل جانب، يصنعان المرمى، تَمْرُقُ الكرةُ الخضراء كثيرًا بين الحجرين، بدا ذلك عشوائيًا.

ألقى الوحيد بثمرتَه بعيدًا، نقلته قفزاتُه العصبية، غير المبررة - فى نظرنا - إلى وسط الميدان، توقَّفَ لعبُ الجميع، اقترب كبير النُّحَفَاء من الوحيد؛ أمَرَتْه إشارتُه بمعاودة الخروج، لم تبدُ لإشارته أيَّةُ قيمة، دفعه الوحيد فى صدره دفعةً قوية، تراجع كبير النحفاء عدة أمتار، قبل أن يسقط، تَجَمَّعَ النُّحَفَاءُ فى مواجهة المقتحم، حَالَتْ الأجسادُ الممتلئة لكلبِيِّى الملامح بينهم وبينه، دار بين الكلْبيين

ما يشبه المشاورات، بدت فاشلة كلُّ محاولاتهم، لإخراج أحدهم، ليحل الوحيد محله، انتشرت بينهم الثرثرة، ازداد جسدُ الوحيد عصبية، صاح حسين مازحا:

أكيد لابْسُه عفريت!

اندفع الوحيد سريعا نحو الأحجار، التى تصنع المرمى، ألقَى بأحدها بعيدًا، اندفعتْ خلفه ثائرةٌ أجسادٌ عديدةٌ.

يتابع حسين المشهد على فترات، مُنْهَمِكٌ هو، فى تمرير كاسات الشاى على الجلوس.

لم يبدِ فى الأفق للعراك نهاية، أطلقت بندقيةُ سعود عيارًا مفاجئًا، أعلى الرءوس المتلاحمة، انزلقَتْ كومتُهم اللَّحْمِيَّةُ، صوبَ السفح البعيد، ولم تَعُدْ تَرَى العيونُ، سوى تسابقَ الغبار الكثيف، فى الصعود نحو السماء.

حالٌ غيرُ الحالِ

كلما مرت الشهور، كلما وهنت عزيمة المشاعر الحميمية، هذا على العكس من المفترض، وكأن الدنيا تريد، إثبات صدق المثل الشعبى: «البعيد عن العين بعيد عن القلب» أو كأنها تنبه الغافلين إلى حقيقة قدَرية، لا يُعلَمُ لدقة ثبوتها سببٌ؛ ألا وهى: إن كل الأشياء تولد صغيرة لتكبر، إلا الهم، فهو يولد كالجبال، لينتهى إلى فئران وصراصير، أو إلى لاشىء.

يقول صلاح:

إنها رحمة الخالق بالمخلوق.

وأقول:

إنه مجرد تفريغ لهموم قديمة، حتى تترك مكانها داخلنا، لهموم جديدة.

يقول:

وهل للمخلوق سعة ما محددة للهم، يصعب تجاوزها؟

يضحك سعود هازئا، فيبدو فى نظرنا، كمن لا يعى معنى الهموم.

منذ قدوم حسين الأخير معه من المدينة، والحال غير الحال، عاودته طقوس غفل عنها منذ مدة، سيطرتّ عليه الكآبة. أيامٌ خمس مضت، قَلَّ طعامُه، وكثر جريانُ ماء عينيه، دون أن يُبدى مبررا كلاميا، حِيَلٌ عديدةٌ جربناها معه، منها ما هو مازح، ومنها ما هو جاد...، أخذه الانغماس فى العودة الدائمة، لأطفاله الطينية، فوق الرف الخشبى، المثبت بجدار حجرته، نعرف آطفاله كما يعرفهم هو - الأكبر حسن، ومنى الوسطى، وأمانى الصغرى، لكلٍ موقعه المعلوم، فوق الرف...

فى حجر جلبابه، جمع نماذج طفله البِكْرِىّ، رفع الحِجْر حتى وصل قُبالة صدره، وراح فى موجات احتضان، مصحوبة بالنشيج.

نزولنا إلى المدينة موصوم بالتناوب، أسبوعا وراء أسبوع، لانطيق صبرا على الهاتف، فيه نُصَرِّفُ مكنونات القلوب، تأخذنا بعدها الحالة، تقضى مع الواحد منا يوما، أو يومين، قبل أن تنصرف، لتسيطر من جديد حالة الركود الوجدانى، والحالة مع حسين طالت، منذ آخر عودة له، مصحوبة بطقوس لم نعهدها معه، إلا مع قدومنا الأوَّلِىّ...

ماذا يا حسين هناك؟!

لا يرد ....

هل كُتب علينا، أن تتبادلنا تلك الحالة، كما نتبادل النزول إلى المدينة؟

لم يمض على تخلُّص صلاح منها إلا أسابيع، استولت عليه، فى إثر وصول خطاب غريب، مُرْسِلُهُ مجهول، أبلغنا بمحتواه ـ بعد تَمَنُّع شديد ـ، يخبره المُرْسِلُ المجهول، أن عَدِيلَهُ، يداوم على الذهاب إلى زوجته، والرسالة لم تكن لتأتى هكذا، إلا لتسىء إلى شرف صلاح ـ الصعيدى ـ، وتكدر عليه حياته، أكثر مما هى فيه من كَدَر...

قلت:

ألك خصومٌ هناك؟

قال:

كثير.

قلت:

عموما زوجتك تحرم عليه، طالما هى زوجتك، وأختها زوجته.

سرحت عيناه فى شرود قصير، قال:

ولكن...

قاطعه حسين:

وأين يذهب إليها.

قال:

بيت أبيها.

قلت دهشا:

تعنى أن زوجتك تقيم مع أبيها الآن؟

قال:

نعم.

اندفع ـ يومها ـ حسين، فى شلال من الضحك الصاخب، صاح:

ولماذا لايكون ذهابُ الرجل إلى حماه، أوحماته، أوحتى زوجته؟

قلت:

أنت ياصلاح طيب، وأهبل.

وأخذتنا معا نوبةٌ من الضحك...

...

هل جاء الدور على حسين؟

قلت:

فُك أسْرَ لسانِك يارجل، صرِّف عن نفسك، لعل الموضوع لايستحق، ألا تذكر كيف ضحكنا، من صلاح ورسالته؟

ـ ...

ـ كن رجلا يارجل.

ـ ...

ـ ها نحن مثلك، وها هى الشهور مضت، لم يعد القادم، بأطول من المنقضى.

ـ زاد من احتضان حجرِه، دون كلمة.

ـ دع هذا الاحتضان يا...

ـ نظر نحو الجبل، وكأنه يبحث عن شىء ما...

منذ أسابيع ثلاثة، ونحن نتندر، بآخر تقاليع قبيلة القرود، إذا راحوا كل عصر، فى مباريات عجيبة، لدحرجة الحجارة القلقة فوق الجبل، تُرى هل أصابتهم لوثة؟

قال سعود:

أعتقد أنهم بصدد حفر خنادق جديدة، تصلح لسُكْنَى الإناث، إبَّان وقت الولادة!

لم تتوقف دحرجتهم تلك، إلا بعد ذلك الحادث، الذى حط فيه حجر كبير، فوق النصف السُّفلىّ، لقرد غافل قُرب السفح، نتج عنه تغيير جوهرى، فى طريقة سيره، إذ بدتْ أماميتاه كآلتى جَرّ، تسحبان خلفهما خرقة مبلولة، عندما وقع بصر حسين عليه، ازداد نشيجه، أشار نحوه، قال:

الولد يا صلاح الولد!

آى ولد يا ابنى؟

فتح حجر جلبابه، رنا إلى نماذج الولد الطينية، قال:

البِكرىّ.

ثمَّ أله:

دهستْ سيارةٌ نصفه السفلى...

هبط على حياتنا الارتباك، وكأننا أول عهدنا بالقدوم، هل كنا نائمين؟ أم إنها الغفلة؟ هل كان من الضرورى، أن يندهس ولد حسين لكى نفيق، وننتبه لسُلطة الفقد المسيطرة؟

أقول:

بل إنه التغابى، أو التعامى، بمعنى أننا نعلم، أن الفقد قاتلنا، فنتعامى عنه، متصنعين عدم الانتباه، خشيةً منه، وكأننا نرى عدونا عن قرب، لكننا نحاول إيهام أنفسنا، بأننا لانراه، تجنبا للمواجهة، التى نعلم حتما، أن نتيجتها لن تكون فى صالحنا.

جَرَتْ أقدمُنا إلى حقائبنا، وإلى حافظاتنا الجلدية، لنقبض على صور الأولاد، التى هى كل مالنا، متشككين فى كون أصحابها، لازالوا أحياء، أو على الأقل أصحاء، ومن يدرى؟

نتساءل.

ونجيب على أنفسنا:

ربما اندهس أحدهم، أومات.

ربما ماتوا جميعًا، وأخفى الأحياءُ عنا الخبر.

وتقول أيضا:

ليس معقولا، أن كل شىء على ما يُرام، وأن الجميع هناك فى أحسن حال، ولا ينقصهم سوى رؤيتنا و... ـ هذا ما يملأون به آذاننا، عَبْرَ الهواتف، عند كل اتصال ـ.

ها هو حسين، فى نوبة مصارحة واحدة، من امرأته، جاء بخبر دهس ولده، فماذا تخبىء لنا صراحة زوجاتنا، المحجوبة عنا، بدعوى عدم إزعاجنا؟

...

عند أول رحلة لسعود إلى المدينة، صمم كل منا ـ أنا وصلاح ـ على اصطحابه، ولم تأت مكالماتنا بجديد، نفس العبارات المطمئنة، والمتشوقة، و...

وقت طويل انقضى، جاهدنا فيه، جهاد المحاربين، ليعود حسين إلى خط المهادنة، قَلَّ طعامنا مثلما قَلَّ طعامه، تقلصتْ لحظات اصطناعنا للضحكات، على العكس من كلامنا الكثير، إذ كان الوسيلة الوحيدة الباقية، لسحب حسين، إلى جُبِّ حظيرة التناسى.

الخارج من الدار

- ١ -

فى أول أيام صباه كان، لا تترك مشاغباتُه فرصةً لالتقاط الأنفاس، بينه وبين أقرانه ثارات لا تُعد، فى صفحة وجهه أماراتُ رَدِّهم العنيف.

تعافُ نفسُه طعام والديه تذمرًا، يلهث فؤاده، يحتل ذيلَه اهتزازٌ قلقٌ دائم، يطلق فمُه ثرثرات التمرد، تفرُّ أقدامُ الفتيات القردية نافرةً، تعتلى القمَمَ مبتعدة، وفهمه لِلُغَةِ المراودةِ الودودةِ مفقود.

ملأ الضحكُ شِدْقَىّ حسين، قال:

القرد صبغ شعره!

قال صلاح:

(العبيط) غمر رأسه، فى زيت السيارة (الوسِخ).

يختلط تراب الأرضِ فوق رأسه بالزيت، تحتال هيئتُه إلى شىء غريب.

معرفتُنا لبعضهم كانت متحققة.

الأسود كلْبىّ السَّحنة لا تُخطئه عين، والضخم غزير الشعر سيدهم، وتلك مستديرة الوجه، (مسَمْسمَة) التقاطيع زوجته، وذلك الذيل المقطوع - فى حادث غيرُ معلومٍ - صاحبُه عَلَمٌ، أما صاحب الضحكة الهستيرية، فلا تبرح ذاكرتى ذكراه، ناهيك عن الموّال المتداول، عن هذا الذى أدْمَنَ الغوصَ، فى قلب دار صالحة، ابنة الديرة، و...

معرفتُنا لهؤلاء ربما كانت ممكنة، ولكنها لايمكن أن تقارن، بمعرفة سعود بأحوالهم، التى لا يتصورها عقل، كثيرْون منهم شَغَلَ حالُهم بالَه؛ كصديقه الفقيد ظافر، وقرد المزرعة رفيق تلقيح النخل، و...، ومصبوغ الشعر هذا: الذى لا تتوقف له حركة، نتابع صولاته، منذ حوادثه الأولى، وحُكمُ سعود عليه لم يتغير، يقول:

قرد ناقص أبراج العقل.

يطلق صدره تنهيدة طويلة، يواصل:

ليس سوى الأيَّام لمثله دواء.

اليوم تنبهت الديرة، على صرخات حيوانية، بدتْ رءوس الجبل مزروعة برءوسهم:

اصطدم أحد القرود اللاهية، بإحدى السيارة المندفعة، جمعت صرخته بقية الغافلين، وعند استدارة السيارة هاربةً؛ لمحت عيوننا قفزة مصبوغ الشعر القوية، وسط حوض السيارة، قال أحدنا:

سيحطم كابينة السيارة، على رأس صاحبها، هذا والله شيء ...

قاطعه سعود بلهجته الواعية:

هذا والله لاشيء، سوى الهروب الكبير!

- ٢ -

نزلاتنا إلى المدينة ـ البعيدة ـ قليلة، يصحب سعودُ أحدَنا كلما نزل؛ حاجاتنا بإدارة التعليم ـ هناك ـ كثيرة، أمام الهواتف تلهث قلوبنا، تلتقط أذانُنا دعواتِ الأمهات، مُكَلَّلَةً بالدمع، وأشواق الزوجات، وكلمات الأبناء القليلة، المتعثرة فوق الشفاة.

إلى جوار سعود محطوطٌ بدنى، مُنْشَغِلَةٌ حواسُّه بالقيادة.

مدقات الصحراء فسيحة، القيادة عليها ـ للفاهم ـ أيسر من داخل المدينة، ذات الشوارع العديدة، والمفارق والإشارات.

بعد تجاوزنا إحدى الإشارات، وعلى نحو مفاجىء، ضغطت قدمُ سعود (الفرامل)، صَحِبَتْ الضَّغْطَةَ صيحتُه المندهشة:

هاهو ....، انظر...

لم تستطع كلماتى متابعته، قلت بعفوية:

مَنْ ...؟

قال وهو يبطىء من السرعة:

الهارب!

...

حول أحد صناديق القمامة يدور، تنفر العين من قذارة هيئته، انْدَبَّ بوزّه داخل الصندوق، خرج دون شىء، تحركت أطرافه ببدنه الهزيل، جاء سَيْرُه مغايرا لاتجاهنا، استدرنا - عند أول تقاطع - فى أثره.

اندفعتِ السيارة، تـأكل الأسفلت من تحتها، نبّهتْه صرخةُ العجلات، وقعت عيونُه فى أعيننا، تَمَلَّكَ بدنَه ارتجافٌ محموم، اندفعتْ أقدامُه مذعورة، أشْعَرَهُ طولُ الشارع بالحصار، أدْخَلَ ذلك فى يقيننا، إمكانية اللَّحَاقِ به، خرج صوت سعود عاليًا:

الديرةُ أوْلَى به من هذا الشتات...

لم تكن بداخلى قناعة، بضرورة هذه المطاردة، قلت:

مالنا به؟

حتى الإنسان يا أخى، يترك الماء، أقصد يترك ديرته، أو قريته، أو ...

احتوانى صمتٌ لحظىّ، حاولتُ طرد ما لاح فى خيالى، حول علاقة المخلوق بموطنه، قلت مكملاً:

أحيانا يترك الإنسان ...

قال مقاطعا:

ليس وقت (فلفسة) يا شيخ.

...

قَصُرَتْ المسافةُ بيننا وبينه، ازدادت قصرًا، مُقَدِّمَتُنَا - الآن - توشك أن تصدم مؤخرته، همسَ صاحبي:

نرهقه أولاً، حتى يسهل الإمساك به.

قلتُ في نفسي:

تُرى، ماذا يدور - الآن - داخل ذلك الرأس الحيوانيّ، المضطرب فوق البدن المتسخ الهزيل؟

تابَعَتْ أطرافُه ضربَ الأسفلت.

دارت العجلات ... ، دارت...

استمر ضّربُ الأطراف الحيوانية للأسفلت.

ازداد دورانُ العجلات.

مرَّتْ اللحظاتُ سريعة.

سيطرتْ (الفرامل) على العجلات بصعوبة، وتنبهنا لانزلاقها الشديد؛ فوق دماء ذلك الذى صدمته أولُ حافلة. عند أول تقاطع للطريق.

وقائع لا تموت

لم يخرج من خاطر سعود، ذلك الأمر الذى استجدَّ، بعد واقعة بنت القرود اللعينة؛ تلك التى أعْمَلَتْ أظافرها، فى أحد أعضاء جسده، تاركةً إيّاه نهبًا للهواجس والارتياب...

عادات كانت تحدث ـ أثناء النوم ـ لا إراديًا، ، لم يعد لها أثر بعد الواقعة، فى ذهنه تقفز الأسئلة.

أيُصبح جزؤه الجسدى هذا، مجرد وسيلة لنزح البول خارج البدن؟

أيمكن أن يخطو خطوة الزواج، أم...؟

...

(فركتْ) أصابعُ حسين شحمةَ أذن سعود، قال:

نريد أن نفرح بك يا ولد.

تعاود الأسئلةُ ذهنَ الولد:

أيمكن؟

يخرج صوته من بئر أعماقه:

(وين) البنت يا حسين؟

...

متبعثرةً الخيامُ داخل التضاريس، بعضها ينتمى إلى بعضه، والبعض الآخر كطرفىّ المغناطيس، يعمل التنافرُ فيها أعمالَه، والديرةُ بالقليل من الجنس البشرى تجود.

آهٍ لو تصلح إناثُ القرود - يعود صوت سعود الداخلى - اللَّعْنة على إناث القرود، عن طريق إحداهن، قد يحلُّ ببدنى نَقْصٌ أبدىّ.

يأخذنا التساؤل:

متى تحل على الديرة أنثى جديدة؟

رغبتنا لا تنقطع، فى حضور عُرس سعود، قبل أن نرحل، سنلتقى أُناسًا غير الأناس، وستمر علينا ليلةٌ لاهية؛ يؤكل فيها لحم سِنام القاعود - الجمل الصغير - وتشبع الحلوق، من مرارة القهوة العربية المُحَبَّبة.

يمتلئ صدر العريس - المزمع - بالغُصّة، ودون دراية تعود السيرةُ الأثيرة لتتفتح:

(صالحة وابن القرود...)!

تحاول كلمات حسين غير الحاسمة، أن تشير إلى تفاصيل الحدث، تُعَطِّل غمزةٌ من عين صلاح الكلمات.

يقولُ سعود ـ على نحو لم نألفه ـ:

يا شباب لا ترموا المحصنات.

فى نفسى أقول:

محصنات؟! ... صالحة؟!

لا تعرف قدماى، كم مرَّة اعتلتْ البرميل المقلوب، الملاصق لجدارها، وتعرف عيناى المتلصصة، مالا تعرفه عينا أحد، ترصد جيدًا خطوط الحقد الممتدة نحوى، من عينىٌ القرد الفتىّ ـ آنذاك ـ عقب كل إنهاء لمهمته، فى بطن الدار.

يكمل سعود:

لا تجعلوا الظن حقيقة.

تصيبنا الحيرة، لم تكن هناك ـ من قبل ـ شُبهة تباين فى الرأى بيننا وبينه، حول ذات الحكاية!

مناوشات حسين لا تتوقف، تطور واسع المجال، طرأ على حياته، بعد أن طمأنه آخر خطابات زوجته، على الأحول، بما فى ذلك ابنه البكرىّ، مع الوضع فى الاعتبار، إمكانية عدم دقةٍ، كل ما يرد من أخبار، متنبهين لما أعقب ذلك، من إقلاعه كثيرا، عن صنع الأطفال، من مخلوط التراب والماء، تحت النخلات الثلاث خلف الدار، يقول لسعود ضاحكا:

صف لنا ما تتمناه فى الشريكة المنتظَرة.

تزداد حيرتنا؛ ما ذكر لسانُه صفةً، إلاَّ ولصالحة فيها نصيب!

يمرُّ اليوم فى إثر اليوم، نتأمَّل نظراته المتعقبة لخطواتها، وهى قادمة بغنماتها، أوذاهبة، يفقد للحظةٍ الانتباهَ لوجودنا، يُطلق تنهيدة طويلة، يقطعها تنبُّهه - أخيرًا - للجالسين، تتردد النظرات فى عينيه، يسحب نفسا عميقا، قبل أن يبتعد، لتطول بعدها أوقات اختلائه بنفسه، فيلفنا شعور بافتقاده، يُسْلِمُنَا هذا الشعور للهواجس، الضلعُ الأكبر هو، فى مربع حياتنا، لا نتأخر عن منحه أرواحنا هدية، لو أراد - رغم العديد من المناوشات - يتسلل القلق إلى دمنا، يطل علينا صلاح بِقَسَمِه:

- والله لابد أفتح (ويَّاه) الموضوع.

- أى موضوع يا ابنى ؟ - أسأله -.

- الزواج.

- الزواااج؟

...

داخل دهاليز سعود تختفى حكايته، مع أنثى القرود اللئيمة، وفى العلن تحاول ذاكرتُه، التَّنكُّر لحكاية صالحة القديمة، يسأله صلاح:

وماذا عن ابنة الشيخ عايض؟

يجيب:

مجرد بوصة جبلية، جلدٌ كفيها قفازان من فحم و...

ـ وماذا بعد؟

تتوقف كلماته عند هذا الحدّ.

تتريص عيونه بأحد القرود البالغة، ينطلق خلفه ويعود، بخطوط التوتر فوق جبهته، وتملكته ناصية الغضب، عند آخر انطلاقة له، خلف ذات الحيوان، ومن مسدسه اندفعت الطلقات، استقرت إحداها حيثما تمنَّتْ نفسُه.

اندفع ثلاثتنا فى أثره، سَحَبْنا ـ بصعوبة ـ قدمَه الجاثمة، فوق صدر الحيوان، تدفعنا يداه بعيدا، ليعاود رَكْلَ رأسَ القتيل، متابعا بصقاته، صوب الوجه المُلَطَّخ بالدماء.

ربما يُداخِله الظن، بأنَّ ذاكرتنا يمكن أن تنسى، هذا القرد البالغ القتيل ـ قرد صالحة ـ الذى كان صبيًا ذات يوم.

لم نعثر ـ حتى الآن ـ على تفسير أكيد لما قام به، كما عجزنا، عن تفسير امتناع القرد ذاته ـ منذ فترة ـ عن الدوران فوق جدران صالحة، يساورنا الشك، فى رواية صلاح، حول رؤيته لها مؤخرا، وهى تطارد القرد بالأحجار، نتساءل:

وماذا حدث إذن لتفعل ذلك؟.

جَدَّتْ انْفراجَةٌ باسِمة، على قسمات سعود، منذ فَعَلَ فِعلَه الأخير؛ هل تملَّكَه الإيمان، بأنَّ موت الحكاية مرتهن بموت القرد؟

ربما...

وربما أيضًا يُدَاخِلُه الاعتقاد، أنَّ حل مشكلته هو الذاتية، يكمن فى مجرد احتفاظه، بالسّر الأخطر ـ نَهَشَ الأنثى القردية لأحد أعضائه ـ لا يدرى ـ على ما نعتقد ـ أن السِّر الذى ائتمن صلاحًا عليه، فى ساعة صفاء ذات يوم، قد انتقل بدوره إلينا، ذات يوم آخر، وفى ساعة أكثر صفاءً.

ردَّدَتُ فى نفسى مقولة، تجرى كثيرًا، على لسان أحد الزملاء الوطنيين بالمدرسة:

(ليس شرطا أن تظل كل الاعتقادات صائبة)

...

فى آخر جلسة ليلية؛ امتدتْ تباريح البواح، سحبتْ حِيلَتنا لسان سعود، إلى سيرة حياة الوحدة، داستْ عباراتنا الودودة فوق الجراح، قلت:

أتعجبك هذه الحياة ؟!

...

إلى بلادنا سيأخذنا الرحيل، ومَن يدرى بمن سيأتوك بعدنا؟

الزواج يا سعود نصف الدين و...

داخل طيَّات نفسى، أحتفظ ببعض المشاهَدات؛ ما كان شكًّا ـ آنفًا ـ ارتقى لدىّ إلى درجة اليقين:

ها هى عيون البنت، ترقُب ظلَّ صاحبنا، تتعمد خَطواتُها الحَوَم حول مجلسه، و...

انخفض صدر صلاح بعد زفرة شديدة، عاد ليرتفع مع شهقة أشد، قال فى حسم:

صالحة يا ولد!

مرت لحظةُ صمت مبهمة.

قال سعود لا إراديا:

نَعَم ؟!

قلتُ مؤيدًا:

صالحة يا سعود، بنت الديرة، و ...

قاطعنى حسين ـ المتحمس ـ، ذاكرًا بعض مفاتنها الجسدية، متجاهلا ما فى ذلك من مخاطر.

تلعثمت كلمات سعود بين أسنانه.

شجعتنا حُمرةُ الخجل فى وجهه...

تابَعنا السباق المحموم، للإجهاز على الفريسة، و...

وانفكَّتْ عُقدة لسانه...

لم يكن أكثرنا تفاؤلا، على ثقة بأن استجابته، يمكن أن تأتينا بمثل هذه السرعة!

تفاصيل سريعة مَرَّتْ، تبعتها مراسمُ زواج صعبة الوصف:

رقصات السيوف البدوية.

ذبائح.

خَلْقٌ كثيرٌ لم تعهده الديرة.

ثمة تحولات عجيبة جرت، فى الشهور الأخيرة، صبَّتْ فى صالح علاقاتنا الغريبة بالقرود، تصل إلى آذاننا الآن، ثرثراتُّهم المبهمة، تدهش عيوننَا حلقاتُهم الراقصة فوق القمم، والمنحدرات، و...

اجتهدَ قمرُ الليلة، فى إتْمَام بدره، لفَّتْ الديرةَ نسمةٌ طريّةٌ، واعترانا حنين الاستشراف، ومن بين ثنايا الزمن القادم، لمحَ طرفُ عينى ابنتى الوحيدة، فى الثوب الأبيض الأثير.

مشهدٌ أخير

موعدهم معًا مضروب دون اتفاق...

بساعاتهم (البيولوجية)، تتكَشَّف أمام أعينهم أوقاتُ رحيلنا، فوق قمم الجبل متعدد الرءوس مزروعةً أبدانُهم، تصدر رءوسُهم هزهزات، تواكبها هزهزاتُ ذيولهم.

...

بدا المشهدُ لسعود مألوفًا، نظراتُه خالية من الاندهاش، يجتهد فى صَفِّ حقائبنا، فى حوض السيارة، تتبادل أرجلُنا السَّعْىَ حولها، كأطباء يسعون حول مريضهم، بُغْية إنقاذه.

يُدخِلُنا سعود بين ذراعيه ، تعتصر الصدر بعضها البعض، تود ألاَّ يغادرها الاحتضان.

يعترى مشاعرنا الانفصامُ؛ ها هو العام الطويل بطول السَّأم، قد انقضتْ ساعاتُه، وعجلاتُ الآلَةِ متحفزة، توشك أن تدور، أوَّل دورات العودة.

...

على جانبى الطريق، انتظم صفّان قرديان، على مؤخراتهم يرتكزون، وترتفع أكُفُّهم المشعرة، نحو أعينهم الدامعة...

امتصّتْ خدودُنا حَبَّات الدمع الساخنة، وألقتْ عيونُنا بآخر نظرة، على كفَّىٍّ صالحة، المُلَوِّحَتين عَبْرَ النافذة، مُفَاجَئين بانحسار نقابها - لأول مرة - عن وجهها المضىء.

(تمت)

السعودية/ تثليث/ مايو ١٩٩٨م

مصر/ دمياط/ يناير ٢٠٠٤م

جبلاية القرود

و(طيف صغير مراوغ)
تلك الرواية غير المسبوقة

لفكرى داود

دراسة بقلم

محمد محمود عبد الرازق

- ١ -

تعد متوالية فكرى داود القصصية (صغير فى شبك الغنم) توطئة حقيقية لروايته غير المسبوقة (طيف صغير مراوغ)، ولذا وجب التعرض الجاد أولا لتلك المتوالية القصصية، التى نضمها - هى والرواية - إلى الرحلات المعاصرة للأراضى الحجازية. هذه الرحلات التى أثرت الأدب العربى بتجارب مريرة، واستطلاعات فنية. والكاتب فى هذه المتوالية يعرفنا بقرية أخرى غير قرى: «لا أحد» لسليمان فياض، و«البلدة الأخرى» لإبراهيم عبد المجيد، و«الفيافى» لسعيد بكر. وأهم خصوصيات هذه القرية الجنوبية مشاركة القرود لأهلها فى سكناها. صحيح أننا رأينا القرود فى تبوك، لكن إبراهيم عبد المجيد اتخذها رمزا، ولم تكن بهذه الكثافة وذلك الحضور.

وتنقسم المتوالية إلى قسمين. ويسبق القسم الثانى الأول زمنيا. ويحدثنا الكاتب فى معظمه - عن العزم على الرحلة، وعن مرارة استمرارها بعد أجازة مع الأهل. أما فى القسم الأول فكان الراوى

قد استقر فى قرية «تثليث» التى لا تذكرها الخرائط أو حتى نشرات الأخبار الجوية بالأراضى الحجازية ذاتها. ويفتتح القسم الثانى بقصة «رحيل» للتمهيد برحلة الأب البحرية لرحلات الأبناء البرية، فى سلسلة متواترة للشقاء الأبدى.

ما زالت الأم، وما زال الأبناء ينتظرون الأب:

«من وراء نافذتنا المطلة على البحر، سارعت أبداننا تبحث لها عن مكان، رءوسنا مشرئبة، رقابنا ممدودة .. وثوب السماء بالشفق الأحمر تلون، والقرص الفضى الأثير على الغروب قد عقد العزم .. عيوننا تلتزم الطريق الساحلى مسمرة عليه عبر النافذة. وزفرة أمى الحارة تلفح مؤخرات رءوسنا، وفى قلبها أبدا لم تخفت جذوة الأمل الكبير» ويستمر الكاتب فى رسم صورة الحنين والأسى:

«تطرح كمى جلبابها الفضفاض حولنا كحمامة تحتضن بكل حنينها البيض، ومن خلفنا ومن أعلى نقطة فوق رءوسنا راحت عيونها تشاركنا زحام وجوهنا، تسرى إلى أبداننا الصغيرة رعشة من يتأهب للقاء الحبيب بعد طول غياب، كما تسرى إلينا رعشة توفها على براءة براعمنا التى لم تكتمل فى أرواحنا . يملؤنى الخوف على روحها التى ترفرف فينا، نحسها تدخل أعماقنا تمدنا بعزم يهزم بداخلنا كل صغائر الصغار. جديلتها الغليظة لم تنفك منذ خرج هو للصيد آخر مرة» ويشير عجز الفقر إلى تحريم الاغتسال حتى عودة الزوج.

وكان الأطفال يبنون البيوت من الرمل قرب الساحل، ونبرة الأب الواثقة تحثهم على الاستمرار فى البناء: «إياكم أن تثنيكم يد العجز الطويلة عن مواصلة البناء» ويوم وداعه تسابقت أيديهم لترفع أطراف جلبابه « داخل قاربه الصغير»، واندفعت أكفهم تلوح

«لآخر موجة سافرت بقاربه بعيدا عن طفولتنا» وتمضى السنين، وتظل الأم على عهدها تعد لهم من «الأمانى» خبزا طازجا، وحين ينتصف المساء تعيد تسخين الفتات على مجامر روحها «وفى كل مرة كنا نمضغ خبز أمانيها مصدقين لكى نعيش» ومع ذلك لم يطرأ أى تغير على المشهد المطل عبر النافذة .

كتبت هذه القصة فى فترة زمنية متقدمة (دمياط ٢٩/ ٧/ ١٩٩٨) وكان الكاتب المتوحد مع الراوى قد ذاق مرارة الغربة سنين عددا. وما زالت سنوات السفر أمامه فاغرة فيها، وكأنها تتنبأ للابن بمصير الأب. فى: «طعم الفستق» يعلم أنه لن يقبض راتبه قبل شهرين كما يحدث فى أول كل عام جديد. توجه إلى المحل اليتيم للديرة (الناحية). أخذ يتلكأ عند البضائع المعروضة ويسأل البائع الهندى عن ثمنها«اجتاحته رغبة غير مبررة ـ من وجهة نظره ـ فى تذوق الفستق» كان هذا هو العام الثانى له فى الغربة. غادرت آخر فستقة فمه إلى جوفه منذ شهرين تقريبا. كان اشترى كيسا زنة نصف كيلو عند عودته إلى بلدته. فى الصالون «انهمك وقتها ـ فى سباق لذيذ مع ابنته الصغيرة للقضاء على ما تبقى من محتوى الكيس» يعود إلى الواقع ليخرج من دكان الولد الهندى «بكيس عدس

ردىء» (تثليث أغسطس ١٩٩٦).

وفى قصة (سفر) لا يحلو لابنته النوم إلا فى حجرة قالت إنها لا تحب البرد. ذكرها أننا فى الصيف: قالت بعبارة بريئة معبرة: «عندما يأتى البرد تكون أنت فى السفر». وأنها لا تريد له السفر. فلديها لعب وفساتين كثيرة. وعندما ذكرها بالفلوس الكثيرة، فتحت حصالتها وأعطته كل فلوسها. وفى قصة «عد تنازلى» التى كتبت فى نفس التاريخ نعيش مع الابنة وأبيها مرة ثالثة. تسأله الابنة عن ميعاد سفره، فيفرق بين أصابعه ويشير إلى الرقم عشرة. سألته مرة أخرى، وثالثة: «تداعت على صدره خواطر الشجن. أحس ربطة عنقه حبلا آخذا فى الضيق .. ضم أصابع يسراه الخمس وأربعة من يمناه مشيرا بإبهامها فقط دون أن يحرك الكلام شفتيه. رددت دموع عينيها السوداوين صدى ما كان يختلج فى نفسه١٦/ ٩/ ١٩٩٩.

ويعرفنا عن المكان منذ القسم الثانى - الذى اعتبرناه الأول - أيضا. يفتتح: «طعم الفستق» بقوله «تجاهد قدماه فى محاولات دائمة لتفادى الاصطدام بالأحجار المنثورة فى الطريق متحدية السائرين، فشل أنفه وكذلك رئتاه الحساستان (كذلك) فى تفادى الهجمات الترابية الناعمة، حاول كتاب فى يده أن يقى الرأس المترع بالهواجس من حر الشمس المسلط على الأرض وأهلها دونما جدوى تذكر ..» وفى: «أغنية حزينة للعصافير» (تثليث ٢١/ ٢ ١٩٩٧) تتفرق ركائب التلاميذ فى الشعاب، بيوت واطئة.. خيام، يوغل المكان

فى الوحشة بعد انتهاء اليوم الدراسى، شمس متعامدة تصفق الأبدان بلا هوادة، شجيرات متفرقة مجهولة الأسماء تحويطات أسلاك شائكة حول مربعات أرضية لحفظ الملكية، كرشة فى الأنفاس، سكون قاتل، يقيم بالدار أربعة آدميين وعصفوران يتوسط عشهما السقف المعروش بتسع خشبات. يرمون أجسامهم تحت العش، يطمئنهم غناء العصفورين «الذى يبدو متعمدا» ترنو أبصارهم إليهما حانية، تذكرهم حركة أجنحتهما «أن ثمة حياة فى أبداننا لا تزال» وتوطدت العلاقة بين الجماعتين ولفت انتباه الآدميين رقاد العصفورين المتبادل بالعش حتى فاجأتهم صوصوة ناعمة ذات صباح «علت وجوهنا بشاشة الأطفال» راح شئ ما ينمى ارتباطهم بالمكان .

فى فجر الغد كانت السماء أرسلت زخات المطر. بدت كل الأشياء مغسولة. وبجوار العش تسلل سرسوب واهن راح يتساقط فى نقاط متقاربة محدثا نغما موسيقيا مع صوصوة العصافير:

«صو .. تك .. صو .. تك .. صو .. تك .. » وأثناء العودة من المدرسة فاجأت أسماعهم أصوات رعدية وصواعق، وقذفت السماء الأرض بكرات ثلجية صغيرة سرعان ما تحولت إلى مطر غزير فأسرعوا إلى البيت بأبدان منهكة وأثواب مبتلة، وتلهفت عيونهم إلى السقف حيث العش بسكانه الجدد من العصافير زغب الحواصل.

وما أن وهنت خطوط المطر حتى تسابقت أقدامهم إلى الخارج، وراحوا والعصفوران الكبيران يبحثون عن أى أثر للعش «وسالت حبات المطر كدموع ساخنة فوق الخدود» وفيما رنت عيونهم متحسرة إلى لسان القط السمين «وهو يمسح دما طازجا حول فمه».

ويعادل كاتبنا بين أسرة العصافير، وأسرة إبراهيم آخر الزملاء الذين شاركوهم الدار. ويقرر فى بداية القصة أن حالهم لا يختلف عن حال معظم المعارين لذلك القطر العربى المترامى الأطراف، ويقدم لنا إبراهيم نموذجا. لم يكن بمقدورهم ألا ينصتوا إليه وهو يحكى حكاية عمهم الكبير الذى ألقى بهم وسط وحل الشتاء بعد وفاة أبيهم: «عندها يسيطر عليه صمت طويل، وتمضى أيام ولا تزور البسمة شفتيه، تنتظر عيوننا انحدار دمعته المتحجرة، حاجباه بارزان، عيناه مغروزتان بعمق أسفل جبهة رأس مفرطح» وكانت عينا إبراهيم ترسل «خطوطا من ضيق صوب العش الصغير» وفى النهاية نكتشف أنه لم يكن يميل إلى العصافير: «صفعت آذننا ضحكة ساخرة، كان وقعها أشد من الرعد، وإذا بأصابع احدى يديه تقبض على عصا طويلة، وباليد الأخرى تشير إلى الخارج» وعندما انطلقوا إلى الخارج، أطلت من عينى إبراهيم « نظرة شامتة خبيثة» وهو يشاهد مصير العصافير الصغيرة!! .. لقد صدمنا هذا التحليل لنفسية إبراهيم.. لكنه علم النفس الذى يعترف بالنقيضين فى مواجهة الواقعة الواحدة.

* * *

ويلحق بالقسم الثانى خمس قصص ليست منه، لأنها تخرج عن نطاق تلك القرية النائية التى استندت إلى المجموعة فى تشكيل رؤاها. ولهذا تنتقل سراعا محملين بعبق قريتنا إلى القسم الأول الذى يتواصل مع الجزء الأول من القسم الثانى ويعضده. وعنوان

القسم الثانى: «طعم الفستق» أما الأول فعنوانه: «صالحة وابن القرود» ويفتتحه بقصة: «فى حضن جبل متعدد الرعوس» التى تحدثنا عن الزملاء الثلاثة الأول، الذين جمعتهم الدار السابق التعرف عليها، وهم الراوى وصلاح وحسين؛ ثلاثة اجتمعوا على الوطن الأم وعلى إعارة طال انتظارها فى هذه الديرة (القرية) البخيلة بالآدميين.

الكريمة بالقرود.

وفى قصة المفتتح هذه يعرفنا بالقرية بصفة عامة ففيها تجمعات نادرة لنخلات قصار، وبيوت ضئيلة متباعدة تفصلها تضاريس طبيعية على جانبى الوادى الوحيد الجاف أو فى سفوح المرتفعات. أما المدرسة فبيت مؤجر من ست حجرات ضيقة. وكلمة مسجد مرسومة بخط ردىء على الباب الوحيد الصاج لمساحة صغيرة محاطة بالطوب اللبن معروشة السقف «وأعلى الباب ارتفع فرع شجرة جاف فى أعلاه تثبت هلال أخضر صغير .. وإمارة ـ مركز ـ الشرطة...» والجبل يلتف على هيئة حدوة حصان عملاقة ذات عدة رءوس صغيرة متقاربة، محتضنا مساحة كبيرة تحوطها أربعة جدران مكشوفة إلا من عدة حجرات متباعدة فى الأركان، تسترها أعجاز النخل وسعفه. ويقسم تلك المساحة الكبيرة جداران متقاطعان إلى أربعة أرباع متساوية؛ ربعان خاويان، وبأحد الباقيين اتخذوا مقامهم، وبالأخير احتمت من العراء البنت صالحة وأمها المكفوفة.

وهذه المقدمة تشعرنا بأننا مقدمون على عمل روائى يهتم بوصف المكان الذى تدور فوقه الأحداث وصفا دقيقا.

ولا توجد ـ فى نظرنا ـ فروق كبيرة بين الرواية والمتواليات.

فالمتواليات القصصية رواية تتألف من مجموعة قصص قصيرة.

المهم أن تحتفظ المتوالية بشكل القصة القصيرة. وهذا ما حدث مع قصة المفتتح. فرصد المكان يدخل دخولا قويا فى نسيج قصة محروم أهلها من أولى متطلبات الحياة، وخاصة إشباع الغرائز.

علينا أن نتعرف بعد ذلك على شخوص القصة.

وأول ما يصادفنا قرد شاب يدور فى تأن فوق سطح وجدران صالحة وأمها المكفوفة. وكثيرا ما كان يهبط إلى بطن رُبعها . ثم يطفو واهنا إلى السطح بعد وقت ليس بطويل «وعندها وبهدوء يجر بدنه سارحا ووجهته الجبل...» وكانت فتحة حجرة الراوى (الدريشة) تطل مباشرة على أهم مطلع للقرود وثمة برميل فارغ مقلوب كان عندما يعتليه يسترق النظر إلى «الأنثى الوحيدة بالبناية».

ويشكل الحرمان الجنسى ملامح هذه القصة: «أثناء عودتنا من المدرسة، وفى وسط الطريق، اعترض بصرنا حمار يعتلى ظهر حمارة، بدت ضئيلة بين أماميتيه، بينما حمار ثالث تحوم أرجله حولهما..» ويبدو أن تزاوج الحيوانات من الأمور التى تجذب انتباه كاتبنا، فى قصة: «من حكايات العم زيدان الأقصرى».

وهى إحدى قصص القسم الثانى التى نستطيع أن نضمها إلى المتواليات من هذه الناحية، وأن يكون ترتيبها الثانى بعد قصة المفتتح فى هذه القصة يقول :

«كنا عندما يخلو أحد كلاب القرية بكلبته دون رقيب، يفاجأ هو ـ الكلب ـ وكذلك صاحبته بأن كليهما لا يستطيع مفارقة الآخر فى الحال كما يفاجأ بسريان الخبر بين أولاد البلدة بسرعة عجيبة فيملأون أحجار الجلاليب الصغيرة بالحجارة الصغيرة (...) وغالبا لا يحدث الانفصال المنتظر قبل أن يستبد اللهاث بالجميع، غير عابئين بمقولة جدى زيدان الكبير فى عرض حديثه حول المسألة الكلابية: يابنى إذا وجدت ذلك كذلك فلا تضرب سوى الكلبة، فالكلب بعدما تورط مع الوسوسة الأولى للفعل أصبح لا يملك زمام أمره ..» وتتحدث القصة عنْ لقاء الخواجات خلف الصخور بالبلدة.

واعتاد زميلا الراوى أن ينصحاه بالإقلاع عن اعتلاء البرميل والتجسس على الناس. وتنتهى القصة حين يفاجئهما بالتدافع لصعود البرميل وتشيعنا القصة عند هذه الخاتمة، لكن ثمة فعل آخر يفرض عليه أن يخصص له القصة التالية للإجابة على سؤال: ماذا كان يفعل القرد عند صالحة؟.. وكتب القصتان فى يومين متتالين بقرية (تثليث) (١٤/ ١٥ يناير ١٩٩٧) كان لصالحة ثلاث نعجات تعيش على نباتات هزيلة فى سفح الجبل.

يمتد خروجها إلى الشعاب القريبة، وفى أثرها يطلق القرد لنفسه العنان. وكانت ألسنتهم تردد: «والله قرد إنسان ونَس للبنت» وكانت البنت تعود بحِزَم الحطب لا يبدو من خمارها سوى حبتى عينيها جرئيتين حادتين «كأنما تتحديان القهر والتقيد وقلة العدل» وتلك العبارة تعبر عن رأى الراوى وليس الشخصية.

ردفان معتدلان، ووسط نحيل، وصدر ناضج لا يمنع الثوب الكاسى من فضح تضاريسه. فى يوم الاكتشاف كانت عيون القرد تدور مع دوران أقدامه ببدنه فوق الجدران بتوتر غريب. تقطع خطواته السطح جيئة وذهابا، مع قفزات غير مستقرة «يبدو بين خلفيتيه عود خيرزان بلون الدم..» لحظات ويطاوع نفسه غاطسا فى قلب الدار. كادت صرخة تنفلت من حنجرة الراوى .ارتطم بصره «بفخذين أسطوريين منفرجين لتلك التى أسلمت ظهرها للأرض، بينما راحت أماميتا الحيوان الفتى تتحسسان ما يكشف القميص الأحمر القصير .. فيما يسمع أنين محموم ملتز..»

لا شك أنها قصة مذهلة.. لكن مقدمتها تتحدث عن الولد سعود أحد سكان الديرة الذى يودهم ويودونه .

فقد سأله الراوى «ماذا يكون فعلك لو فاجأتك بكارة عروسك بانفضاضها يوم عرسك؟!» فأجاب والبرود يملأ قلبه: «لا شىء» لا نعرف ما هدف الكاتب من ذكر هذه الواقعة تحت عنوان «مطلع صغير...» وإن تحدث عن الجنس الذى يقدم لنا القاص صورة غريبة شاذة له.

وتحت عنوان «شغب» نقرأ قصتين قصيرتين جدا: فى الأولى يفعل الراوى شابا مع القرود ما كان يفعله صبيا مع الكلاب؛ ففى موسم التزاوج لمح سيد قبيلة القرود يداعب عروسه الجديدة، ولما قبلته أطلق الراوى حجرا أدمى مؤخرته. وعندما أفاق من غفوته بعد الغداء لم يجد أثرا لحبل الغسيل، و «بدت من بعيد قطع

ملابس محشوة بأبدان حيوانية راقصة!!..» أما القصة الثانية فعن سيارة نقل صدمت قردا صغيرا، فأرسل أبواه صيحة رددتها حناجر كل من وصلت سمعه. وعند أول انحناءة للطريق كان الممر شديد الضيق بين مرتفعين، فقفزت القرود على السيارة وتسلح الرجل بالإصرار حتى لا يتوقف رغم الفزع . وقذف أحدهم بنفسه على الزجاج ، فأحدثت العجلات صريرا عنيفا أزعج الحيوانات للحظة، ورمى السائق نظرة إلى الخلف حيث كراتين الموز «فلم يقع بصره على كرتونة واحدة باقية؟..»

منذ العصر الرومانتيكى ونحن نعتمد على إضافة إشباع حب الاستطلاع إلى رغبة الجمال. وكنا فى العصر الكلاسيكى نكتفى بالجمع بين النظام والجمال. والأساس فى مجموعة «صغير فى شبك الغنم» هو الغرابة التى تحدث قدرا كبيرا من المتعة المناسبة لظروف المتلقى العقلية وعاداته ومعتقداته ويواصل الكاتب حديثه عن القرود بالقصة التى اتخذها عنوانا لمجموعته فالغنم يبيت فى شبك خشية عليه من الذئاب والقرود. يقول سعود : «من أسبوع واحد، والله يا رجال تمكنت حيلهم من خطف خروف ابن شهرين.. نسينا ندخله الشبك..» والشبك ـ الذى صنعه سعود ـ قفصان متسعان اتساع حجرتين كبيرتين فى ارتفاع قامة رجل طويل، ظهرهما الجدار الجانبى لداره «تصنع جدرانهما والسقف أعمدة حديدية رئيسية، تتقاطع فيما بينها أسياخ رفيعة رأسيا وأفقيا، فتصنع عددا هائلا من مربعات صغيرة لا تمرر يد طفل صغير..» وذات يوم دخل أحد الشبكين قرد صغير ولم يستطع الخروج بعد

فرار جماعته فأغلق عليه سعود الباب وتلقفت صرخاته أسماع القرود فحاولت إنقاذه لكنها كانت تتراجع فى اللحظة الأخيرة لأسباب عدة، دون أن يرحمها سعود. وفى النهاية: «نبهنا الهدوء الذى استجد بشبك الحبيس، فيما اضطرم صراخ الآخرين كالنار، واجتهدت أكفهم فى حَسْو التراب فوق الرءوس، وراحت أصواتهم تميل إلى النحيب.. دارت عيوننا تستطلع الأمر .. «وإذ بجثة صغيرة معلقة من العنق فى حبل كان متدليا من سقف الشبك.. اقتربت أقدامنا .. غرزنا نظراتنا فى عينيه الجاحظتين، أبصرنا بداخلهما حلما ساكنا، وقمما عالية تسكنها العشيرة، وأرضا مفتوحة خلف جبال ممتدة..».

ولموت القرود قصة أخرى هى قصة «من أحاديث البر» وهو عنوان عام لا يوضح خصوصية العمل، نبهتهم صرخة استغاثة ملتاعه. كانت قبل ذلك مجرد صدى يتردد من بعيد: «كانت ذراعها اليسرى موضوعة فوق كتفه ـ ذلك الذى نبهتنا صرخته ـ بينما تلتف ذراعه هو اليمنى حول ظهرها واصلة من تحت إبطها الأيمن لتنام أصابعه فوق صدرها، وأصابع كفه اليسرى تشارك أصابع كفها اليمنى التشابك، تدب الحياة فى نصفها العلوى بينما نصفها السفلى مدهوسا يزحف فوق الأرض كقطعة خيش قديمة».

وقع نصفها السفلى فريسة العجلات، أو ربما غافلتها صخرة من عل من حول الزوج الحزين المرهق ثمة أربعة قرود متقاربة الأعمار هى الأبناء «تلف بها وتدور أرجلها، وتربت أيديها ظهرى كل من

والديهم المكلومين» عندما وصل الركب الحزين إلى مستقره فى سفح إحدى قمم الجبل، أرقدها فى حنو فياض فوق حاشية من جلد الغزال، وأحاطها بجدارين من حجارة رخامية لامعة، ساهمت مساعدة الأبناء فى تثبيتهما، بينما اتخذ جسم الجبل جدارا خلفيا، ومن أغصان السَّد صنعوا سقفا، وجدُّوا فى جلب أطيب الأطعمة. مضت أيام لم تهدأ لبدنه فيها حركة. وذات يوم أصاب التصلب الأبناء وبدا الرأس الذى كان يعتريه التحرك من آن لآخر ساكنا «وسط وسائد من زهور برية».

كان من الممكن للكاتب أن يكتفى بهذا المشهد الحزين ليبلغ مبتغاه من التأثير فى نفوسنا، بيد أنه أراد أن يوضح ردود أفعال الجماعة السابق التعرف عليها ويؤكد على لا مبالاتها، فثرثر كثيرا دون طائل عن سخرية البشر تجاه ألم الكائنات الأخرى. وفى قصة «عرس» ننتقل من المأتم إلى «حفل تتويج» ليظل البقاء للأقوى دائما فما أن انتصر الفتى على الملك الشيخ حتى ارتفع تهليل المبايعة للملك الجديد «فيما توجهت أقدام العروس نحوه فى دلال، حيث طوقت يداه عنقها بعقد من سعف النخيل الأخضر».

وفى قصة: «طلعة برية» انعقدت نية الأبوين على تلقين القرد الصغير أول درس لصعود القمم. بدا الأمر كابوسا جاثما على صدره. عند آخر محاولة انزلقت قوائمه، واندفع نحو الجانب الأيسر السطح بعيدا عن زمام والديه. تصادف أن كانت أسرة آدمية فى نزهة برية . أسرع الصبى يحمل القرد الصغير تناولت البنت

الشابة قميصا ملونا لأخيها الرضيع وحشرت بداخله بدن الحيوان المرتجف.

اختطفت القرود الرضيع الصغير فوق فراش من جلد الماعز «كالمغيب صحب الوالد الحيوان. راحت قدماه تقاوم الانزلاق وهى فى طريق الصعود. وعندما لامست يداه القمة كان الإرهاق قد استولى عليه، وكاد عقله أن يغادر رأسه، إذ رأت عيناه أيدى القردين تتقاذف الطفل فيما بينهما ككرة صغيرة، وأخذه الدهش عندما لم يصل إلى أذنيه صراخ أو بكاء..» حين انتهى الطفل القرد من قبلات الشوق «احتل ظهر أحد القردين بينما رفعت يدا الآخر الطفل الآدمى فوق ظهره، وقبل أن يمايز عقل الرجل بين أفعال يمكن أن تتخذ، انطلقت الأرجل الحيوانية مبتعدة بالجميع».

وتبدأ قصة: «مناوشات على وجه الصباح» بعد مرور ثلاثة أيام على تأخر سيارة مياه الشرب عن موعدها. ولم تستطع حلوقهم أن تألف طعم الماء المالح المخصص ـ أصلا ـ للغسيل .. شاهدوا قردا يحمل «كولمن» ليس فارغا «فالعمود الفقرى للقرد الضخم ينوء بحمله». ضربوه بالحجارة فتفاداها. «فى ذلك الوقت من كل يوم، تنتشر جماعات القرود بين البيوت القليلة المتباعدة وحولها، تحمل ظهورها وأيديها كل ما يمكنها حمله..» وأخيرا تفتق ذهن أحدهم عن إلقاء رغيف للقرد. وبهذه الحيلة ترك القرد «كولمن» المثلجات.

* * *

لقطات حية قد لا يصدق بعضها، وقد يصيبا بعضها بالذهول، لكنها توحى بتوهج شعلة الفن داخل صاحبها.

ولا شك أنه فى مجموعته القادمة سيظل أكثر احتفاءً بلغته، خاصة وأنه يسعى إلى أسلوب خاص به، من أهم مميزاته التأكد على حركة أعضاء الشخص لا الشخص ذاته الذى يسيطر على أعضائه، فالقرد لا يدور وإنما «تدور به أرجله على ظهر الجدران» والراوى لا يبصر، وإنما «يُدخل عيونه لتبصر» و «أسرعت أقدام الصبى».. و «تناولت يد الشابة».. و «رفعت يدا الأم الطفل الآدمى فوق ظهره» .. وهكذا..

* * *

وتعد متواليات: «طيف صغير مراوغ» امتداداً لمتواليات:

«صغير فى شبك الغنم» بل إنه يعيد صياغة إحدى قصص الأولى فى الثانية. وهى قصة: «صالحة وابن القرود» التى تحولت إلى: «الدنيا من فوق برميل مقلوب» ويشير إلى حدث من أحداث قصة: «صغير فى شبك الغنم» فى قصة: «مرثية للصديق» حين يقول: «تمتلئ قلوب قبيلة القرود غيظا؛ لم تغب من أذهانهم ـ على ما يبدو ـ تلك الصورة القديمة لصغيرهم السابق، هذا الذى فضل الموت شنقا ـ بحبل يتدلى من سقف شبّك الغنم ـ على حبس سعود له، تود أسنانهم تمزيق جسد ظافر، ذلك المارق الأثيم» . وذلك فى سياق المقارنة بين القرد السابق والقرد «ظافر» الذى استكان إلى سعود وأصبح لا يترك بيته.

وفى نهاية هذه القصة يقول: «سرقتهما - ذات مرة - جلسة السطح الليلية. بث صمتٌ كل منهما همَّه للآخر. أثقلتْ الخواطرُ رأسيهما، جَرَّتْهما أقدامهما إلى النوم، أنستْهما الحالُ إغلاقَ نافذتى الحجرتين أيقظ سعودا - فى الفجر - عواء ذئب عجوز. قادته قدماه وَجِلاً إلى فراش الصديق. فاجأه اختفاء جراب المسدس، وأخَذَه المغيب طويلا، عندما وقع بصره على حنجرة ظافر المنهوشة ».
ونعلم من قصة: «من ظافر إلى ميمون» أن القرود هى التى نهشت حنجرته: «تحسر سعود على القرد - ظافر - صديقه؛ راميا قبيلة القرود بالخسة، لضلوعها فى نهش حنجرته..» وتحدثنا قصة: «مرثية للصديق» عن القرود التى كانت تقتحم بيت سعود وتفر عند حضوره . هذه المرة اصطحبت معها أحد القرود حديثى العهد بالسطو، لم يستطع الفرار، فاختبأ فى إحدى الحجرات. وقدم سعود الطعام والماء فاستكان له، ولم يشأ أن يتركه.

وإذا كانت القرود نهشت حنجرة أحدها: فقد مزقت«الصورة» فى القسم الثالث من قصة: «أطراف لثوب الشجن» بعنوان :

«قرد الديرة» . فى القسم الأول نلتقط الطرف الأول من أطراف ثوب الشجن بعنوان: «أطفال الطين» وفيه نشاهد حسين - زميل الراوى بالمدرسة والمسكن - يجلس تحت النخلات الثلاثة المجتمعات معا خلف الدار. ويضع الماء على التراب الناعم ليحوله إلى طين يشكله أطفالا متفاوتة الأعمار تمثل أولاده. وبعد البكاء يضعها على الرف الخشبى المواجه لسريره.

أما الطرف الثانى من أطراف ثوب الشجن فبعنوان: «محاولة للاكتمال» وفيه يناجى الراوى صورة ابنته التى صنعت منه رجلا: «لحظات الحمل الأولى لم تبرح وجدانى، تنامى كيان الرجل بداخلى يوما بعد يوم، ارتدى لقاء الزوجية الغريزى زيا جديدا، كما اختلفت ألوان الحياة مع لحظات الميلاد الخالدة».

أما صلاح - زميل الراوى الثانى - فيهوى الرسم، ونراه فى الطرف الثالث يرسم أفراد عائلته حتى ازدحمت جنبات حجرته بالحوامل الصغيرة، وذات يوم ثبت الورقة على الحامل الكبير الذى يتوسط باحة الدار غير المسقوفة وقرر أن يرسم «قرد الديرة» وعندما أنهى الرسم كان القرد: «تتسع مساحة مؤخرته اتساع الصحراء، لونها الأصفر لا تدركه الأبصار.. عيناه بئران عميقتان على قلب الوادى الجاف.. عقيرة ظهره إحدى قمم الجبل متعدد الرءوس.. تتوجه أطرافه نحو الجهات الأربع الأصلية.. إحدى أذنيه وهده بين مرتفعين، والأخرى صحن لجدول جف ماؤه منذ سنين .. ذيله نخلة نحيلة معقوفة الجزع.. فمه نفق ممتد داخل بطن الجبل .. شعره أعشاب البر المتناثرة تتخلله قملات من حشرات الأرض المهجورة .. منخاراه كهفان مظلمان.. «وفى الفجر أفزع نومهم» نزاع قردى صاخب فجمعتهم الدهشة وسط باحة الدار، ولمحت عيونهم فوق الجدران ذيولا قردية هاربة، وامتدت أيديهم نحو الأرض تجمع «أشلاء الصورة المتناثرة».

وقد أردنا الاطلاع على صورة القرود لنرى مدى تمكن الكاتب من الوصف والتصوير. ويعيد كاتبنا ذكر «القمل» بتفصيل أكبر بقصة: «طيف صغير مراوغ» وهو يصف أشجار السّدر التى تحتل مساحة فى «حجم فدان». فأغصانها تعتبر ملعبا للقرود التى تقضم كل ما يقع عليه أيديها من ثمار. ويتخذها الصغار أراجيح هوائية، و «تتناثر الثمرات تتلقفها أيدى مفترشى الأرض، تُلهى الأصابع عن الغوص فى شعر الجلد، لتقنص قملات بذيئة، وتصل بها إلى الأفواه..»

ونقابل شخصيات المتواليات الأولى فى الثانية، وخاصة حسين وصلاح، وسعود الرجل الطيب الودود الذى يقيم بجوارهم. ونقلا عن «نهاية الأرب فى كلام العرب» للنويرى، يذكر الكاتب فى هامش قصة: «من ظافر إلى ميمون » (الحاوى) أن يزيد بن معاوية كان له قرد يركب الحمير، ويجيد التسابق بها. وتنتقل القصة من قرود التاريخ وقرود تثليث إلى قرد قرية مصرية تقع «على قلب النيل» وكان القرد يأتى إليها بصحبة «الحاوى» . وعند الرحيل يركب الحاوى حماره، وتتخذ ابنته الصغيرة من قدمه سلما لترمى بدنها فى أحد جرابى الخُرج، وبالجراب الآخر يتكوم بدن ميمون «وإلى حلقة جديدة، فى ناحية أخرى من القرية يكون القصد».

ويقص الراوى لأقرانه فى قصة: «الخوض فى سيرة قرد أسود كلبى الوجه» وقائع رواية: «الحب فى المنفى» لبهاء طاهر. وعندما يصل إلى عبارة: «هنا .. أبيض» مشيرا إلى جبهته «عن ولى عهد

إحدى دول الخليج »، ويفهم سعود المعنى، يظهر على وجهه الاضطراب، ويقول هامسا: «رجاء يا أخى لا تعيد هذا الكلام .. والله ما غير الربع الخالى يكون قبرا .. خلينا فى القرود أسلم» وتفتتح القصة بحديثه عن أنواع القرود: «السّاكى، والعوّاء، والعنكبوتى، والعنكبوتى الصوفى، والوكّارى، والشمبانزى..» وفى قصة: «بنت القرود السمراء تقع فريسة حب كبير» يحدثنا أهل المكان عن بنت القرود السمراء المولع قلبها بابن كبير شمبانزية الديرة. ولهذا حبسها قبيلة القرود فاضطرت إلى الهرب مع عشيقها: «عند سفح الجبل الأحمر، أنهيا قبلة اللقاء سريعا، أنهت أيديها ـ مضطربة ـ عقد (صُرة) صغيرة على قليل من الفتات، وعبر سواد الليل، ألقت عيونهما على أرض العشيرة نظرة الوداع الأخيرة».

ويتحدث الكاتب عن وسائل الإغراء عند القرود فيقول :

«على ناصية الجبل الأبيض، تتسكع أقدام القرد (العفريت) ـ فى أول سن الصبا هو ـ تلامس مؤخرته الأرض، تنحط ذراعاه فى وسطه، يطلق ل(بريشة) عينيه السراح، يلوح فى الأفق سرب فتيات القبيلة الحسناوات، تدخل حيِلُه أطوارا جديدة، ترتفع مؤخرته، لامعة هى كمرآة، تعكس ضوء الشمس، يقع الضوء على أعينهن، ترتفع أيديهن بارتفاع الأهداب، تسترق عيونهن النظر، ترتسم على شفاه بعضهن ابتسامة ماكرة، فيما تصدر حناجر بعضهن الآخر زومة ضيق رقيقة مفعمة بالحرج . ويبدو أن «المؤخرة الحمراء» لها

سحرها عند القرود، وهكذا ـ على الأقل ـ يتصور الإنسان. وقد ورد ذكرها مرة أخرى فى قصة: «سعود وابنة القرود اللئيمة» كان سعود يجلس تحت شجرة فى قيلولة نارها لافحة، فإذا بدفء ما يلامس ساقيه العاريتين، ثم تحول التلامس إلى احتكاكات خفيفة، فاعترتْ بدنَه اهتزازاتٌ موازية لفعل الاحتكاك، وامتدت يده بآليه ولامست المؤخرة الحيوانية «وقعت الأنامل فى أسر الملمس الناعم، ازدادت الحركة سرعة...»

وفى قصة: «موقعة الثلث الأخير من الليل» تطارد قبيلة القرود العاشقين حتى تعثر عليهما، وفى هذه القرية النائية لا توجد غير الحكايات «تجعل منها خيالاتنا واقعا، يمكن أن يعاش، أو ـ على الأقل ـ يتلاعب بعقولنا، فتخاله العقول من لحم ودم».

ويحدثنا الراوى فى قصة: «ثلاث وقائع للتيه» عن دلالات بعض كلمات وعبارات اللهجة البدوية التى كان ينطقها التلاميذ، ويورد بعض النماذج الطريفة لها. وفى قصة: «ينامون فى واد ويصحون فى واد يتعلم سعود اللهجة المصرية» خاصة من مسلسلات التليفزيون ، وفى هذه القصة ينمو الخشخاش تلقائيا فى الصحراء، ويفعل فعله فى الأغنام والقرود: «إلى صفحة السفح الممتد للجبل ترنو العيون، تتمايل رءوس بضعة قرود حديثة السن، تتخبط جسومهم بالأرض، تصدم الرءوس بعضها البعض لا تتسع عينا سعود ـ الفاهم ـ دهشة، ينْدبّ بوز القرد منهم فى الأرض كسن فرجار كبير ترتفع خلفيتاه إلى أعلى، يدور بدنه كمن يريد أن يزرع صفحة السهل بدوائر هندسية عديدة، ثم ينطرح بدنه جانبا!..».

وعن الأغنام يقول: «النبته طبيعية تنبت خلف الجبل، شجيرات متفرقات هى، ولغنم سعود معها حكايات، لم تدر بذهنه ـ أول الأمر ـ أية دلالة لترنحات بعض غنماته، الترنحات يعقبها أحيانا قىء، وثمة ازدياد ملفت لعدد مرات الإخراج اللاإرادى، بدا له الأمر ملغزا»...

وقد لاحظنا عند دراسة متواليات فكرى داود الأولى أن تزاوج الحيوانات من الأمور التى تجذب انتباهه. وكذلك الحرمان الجنسى الذى يضطر الإنسان إلى اللجوء للحيوان. ونراه يتابع ذلك فى المتواليات الثانية:

ففى قصة: نوبة استرجاع للحظات الحالكة «يتحدث صلاح عن قفزات الشباب فوق الدواوير والزرايب» لينسكب خلف إناث الحمير «دماء شبابهم مهدرا» ويدهش سعود، فالحمير لديهم برية، ومن ثم فقد كانت «تغنيهم ظهور الإبل عن ظهور حميرهم النحيلة التى لها طباع الوحوش، تنهب طعام الحلال ـ الأغنام ـ وتفر هائمة».

ويعود إلى حكاية القرد الشاب مع البنت صالحة، ويلمح إلى أن سعودًا حاول مع انثى قرد، و «تهتز رأسه فى أسى، يتواصل الحوار بداخله، من أين يأتيك العلم، بذلك الأثر الدائم لتلك المخالب الحيوانية فى جزء بشرى تنداح عنه نصف الحياة!..»

ويزيد الأمر إيضاحا بقصة: «سعود وابنة القرود اللئيمة» فقد «حاول استبدال يده ـ لا إراديا ـ بجزء جسدى غير مستقر، وعند

لحظة تمام الاكتمال كثيرا ما يتم النقص، ولم يعد وعى اللحظة إليه، إلا وعيناه تنظران فى رعب ـ إلى أثر المخالب القردية بين ساقيه..».

وفى قصة: «مواجهة على قلب نبع قديم» تخطف القرود صبيحة الشابة خالة البنت صالحة التى لم تكن قد ولدت بعد.

وفى القصة التالية: (تنويع على لحن المواجهة) «الانفلات من بين أنياب الهلاك» كان سعود قد توجه للصيد، وغفا تحت شجرة، واستيقظ على القرود ـ الذين لا يميلون إليه ـ وهم متسلحون ببعض العصى، وكانت بندقيته الموجهة إلى صدره، خاليه من الطلقات،

فضربت قدماه الأرض، و «قبضت إحدى يديه على ماسورة بندقيته، باغتته دفعة أنثوية متوحشة، أسقطته مرتطما بالأرض، يده متشبثة ـ لازالت ـ بالسلاح، لطمت يده الأخرى الخد الأنثوى المتوحش بعنف، كمن يبحث عن الحياة وسط أشلاء لموتى. أرسلت الحنجرة الآدمية لصبيحة صرخة قردية فزعة، وراحت عيناه تتابعان قفزاتها وهى تبتعد ببدنها سريعا...».

وإذا كانت صبيحة قد تشبهت بالقرود بعد معاشرتها..

فذلك ما حدث أيضا مع الخروف الصغير بقصة: «رضيع لبن القرود» «ترتفع (لِيَّته) إلى أعلى كذيل قرد، يتكئ على مؤخرته، يحك بها الأرض، تبدو قفزاته أكثر قردية من القرود، أثارت ثرثرته المريبة فى نفوسنا، يمتنع حلقه عن (مأمأة) الأغنام!...»

* * *

وتشكل هذه المتواليات (رواية متكاملة) تنتهى بزواج سعود من صالحة بقصة: «أشياء لا تموت» وهى فتاة جميلة كما تقول قصة:

«الدنيا من فوق برميل مقلوب» لعودها «امتداد جذوع النخيل، ولتضاريس جسدها صراحة المكان، يقع خطوها فينا وقع خفقات قلوبنا عند هياج الذكريات» وفى: «مشهد أخير» يتأهب المغتربون للعودة إلى ديارهم، وتتجمع القرود لوداعهم: «موعدهم معا مضروب دون اتفاق، بساعاتهم (البيولوجية) تتكشف أمام أعينهم أوقات رحيلنا، فوق قمم الجبل متعدد الرءوس مزروعة أبدانهم، تصدر رءوسهم هزات، تواكبها هزات الذيول كما تودع صالحة أيضا: «وألقت عيوننا بآخر نظرة على كفى صالحة الملوحتين عبر النافذة مفاجئين بانحسار نقابها - لأول مرة - عن وجهها المضىء»...

إنها - لا ريب - رواية غير مسبوقه.

محمد محمود عبد الرازق

فبراير٢٠٠٤

صدر للمؤلف

١ ـ الحاجز البشرى ـ قصص ـ الهيئة العامة.

لقصور الثقافة ١٩٩٦م.

٢ ـ صغير فى شبك الغنم ـ قصص ـ الهيئة العامة.

لقصور الثقافة ٢٠٠١م.

٣ ـ سمر والشمس ـ قصص للأطفال ـ دار.

الإسلام للطباعة والنشر ٢٠٠٤م.

٤ ـ عام جبلى جديد/ رواية/ مطبعة الإسراء/ ٢٠٠٦.

٥ ـ وقائع جبلية/ رواية/ الهيئة العامة لقصور الثقافة/ ٢٠٠٧.

له تحت الطبع:

١ ـ المتعاقدون/ رواية.

٢ ـ الخروج الكبير/ رواية.

٣ ـ نبش فى ذاكرة الحصار/ قصص.

٤ ـ دهس الطين / قصص.

الفهرس

* * *

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www. egyptianbook org.eg
E - mail : info@egyptian.org.eg

الأساس هنا هو الغرابة، التى تُحدث قدرًا كبيرًا من المتعة، المناسبة لظروف المتلقى العقلية، وعاداته، ومعتقداته، إذ يواصل الكاتب حديثه، عن خَلْطَة عجيبة من التعايش، بين البشر والقرود، عَبْر لغةً فريدة وتقنية خاصة.. إنها - ولاشك - رواية غير مسبوقة.



الهيئة المصرية العامة للكتاب


ISBN# 9789774208625
6 221149 012738